رواية
سيفار
الأرض الأخرى
أصيل بوقريون
أفريكان للنشر والتوزيع
THE AFRICAN PUBLISHING

سيفار – الأرض الأخرى

أصيل بوقريون

سيفار – الأرض الأخرى

أَصيل بوقريون

الطبعة الأولى لدار آفريكان

1442ه – 2020م

كل الحقوق محفوظة للناشر

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استرجاع المعلومات أو نقله أو قصه أو نسخه أو تعديله بأي شكل من الأشكال إلا بإذن خطي من الناشر

الآراء الواردة في هذا الكاتب لا تعبر بالضرورة عن آراء الناشر

مقاس الرواية 16 X 11

تصميم الغلاف: محمد إسلام بوغدو

التدقيق اللغوي: ياسين خضراوي

صدر في: السداسي الثاني لسنة 2020

ردمك: 978-9931-817-04-8

العنوان: حي المرقب – المحل رقم 02 – ولاية عين الدفلى

رقم الهاتف: 0659702052

البريد الإلكتروني: theafricanpublishing@gmail.com

أصيل بوقريون

سيفار – الأرض الأخرى

أفريكان للنشر والتوزيع
THE AFRICAN PUBLISHING

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء:

إلى الأنوار التي أرتني الطريق في ذلك النفق المظلم، لعائلتي الموجودة هناك دائما عند الحاجة كأمر أعود إليه في النهاية .إلى أصدقائي الكرماء، صوفان وبوسنة، إلى جحيش إسـلام وفوحة أحمد، شـافع ودجلط هواري، إلى أولئك الموجودين في هذا العالم إلى القراء، أهدي هذه الرواية المتواضعة.

إلى أيام الأربعاء السـيئة تلك، إلى أولئك الذين لا يقرؤون الروايات إلا ونوافذ فصـل الشـتاء الممطر، إلى الذين يحبون ارتشـاف القهوة بجانب الكتب تاركين على صـفحاتها آثارهم، إلى مدعي الثقافة، أولئك الذين لا يدركون أن ما يكتب مخدرات قابلة للتعاطي في أي وقت وحالة، هذه الرواية ليست لكم، فلا تقرؤوها.

مقدمة

البداية تكون بعبارات صامتة وغير مفهومة، يقرأها عابر لهذا الرف لم يمسك كتابا من قبل، حتى أنه قد ينسي عدد حروف اللغة، تسري حينها قشعريرة فضول في بدنه تزيد لهفته لمعرفة بقية أحداث الرواية، فيشتري نسختين، واحدة له وأخرى لأخرى، وفي مرة من المرات، حين يستخرج الرواية لإكمالها، وبالضبط في الصفحات الوسطى للكتاب أو قبل ذلك بقليل، يظهر أن الكاتب يأخذ جرعة خاصة قبل أن يمسك القلم، هكذا يحيك الكتاب جرائمهم، ويبيعون كل تلك النسخ التي لا ينهي قراءتها أحد، وصراحة، كنت سأفعل الشيء نفسه، لتكونوا ضحاياي وأكون بذلك مجرما، لكن بما أنه كتابي الأول، فسأروي لكم دون مبالغة مزيفة، وأترك جريمتي لكتابي الثاني .. سيفار :الأرض الأخرى.

مقدمة 02

كل ما كتب في هذه الرواية لا يعدو أن يكون محض خيال، باستثناء تلك العبارات التي قررت أنت بنفسك أن تؤمن بحقيقتها، لكن دعنا نتفق على شيء قبل أن تقرأ أي حرف، الأرض الأخرى موجودة هناك منذ الأزل، فقط قلة هم من عرفوا ذلك، منهم من زارها وقرر البقاء، ومنهم من عاد أدراجه وكتم سر وجودها، تماما كما فعل أبو بكر في هذه القصة.

مقدمة 03

ما يجب أن تعرفه:

سيفار، هي مدينة في الصحراء الجزائرية قرب جبال الطاســـيلي نـاجر، وقد قيل إنهـا موجودة منـذ واحد وعشـرين ألف سـنة، حين تدخلها أول مرة، يخيل لك أنك وسط أحد متاحف الفن، رسوماتها التي لا تشبه رسومات أي مكان آخر فوق الأرض، تنظر نحو زمن ماض وترى لوحات لأشياء لا تعود للزمن نفسـه، تتسـاءل حينـها، هل بلغت بعض الحضـــارات القديمة ما نحن عليه اليوم من تطور، أم أن تلك الرسومات لا تعدو أن تكون تخيلات فقط لم تجسد على أرض الواقع.

مقدمة 04

أعدكم أن تكون هذه آخر مقدمة، فقط، المقدمات ممتعة.

عند التّل

من الكتاب القديم.

هناك، على تلك الهضـــبة العالية، أين ترى الأمواج وهي تنشـــأ في عرض البحر تجرها الرياح، توصـــلها لنهايتها على الشاطئ، تتخبط محاولة الإفلات، لكن لا أحد يهرب من ســاعته حين تصـل، فتموت وتنســى، ولا أحد يبني لها قبرا، كان الملك يقف بجانب ابنه الصغير أبو بكر وعيناه تتجهان صـــوب البحر، في حين كان الولد ينظر تارة نحو أبيه وتارة يتفحص الأزرق الشاسع هو الآخر، ثم ما لبث أن ســـأل " ما الذي تنظر إليه يا أبتي، إني لا أستطيع أن أرى شيئا بعيناي الصـغيرتين، أهي سـفينة قادمة ؟" !

ابتســـم الأب لقول ابنه، وانحنى حتى صـــار معه بمسـتوى واحد من الطول، وضـع إحدى يديه على كتف صـغيره وبيده الأخرى رفع سـبابة ابنه مشـيرا للبحر " : بعيدا من هنا، توجد أرض لم تطأها قدم بشـر، ولم يصـل إليها سـوى قلة قليلة " ثم روى له قصـة ظن الولد حينها أنها من قصص خيال أبيه المعتادة التي كان يقصها له كل يوم قبل أن يخلد للنوم، لكنه لم يكن على علم حينها، أن

قدماه ستمشي يوما على تلك الأرض، كانت هذه القصة بداية مغامرة الفتى.

ماندين في المكتبة

1أكتوبر 2018 ، الوقت الحاضر.

كانت عقارب الساعة تشير للثالثة مساءا عندما تفحصت ماندين ساعة معصمها، وانتبهت أنها هنا منذ أربع ساعات ولم تصل لما تصبو إليه بعد، أعادت ذلك الكتاب من بين يديها إلى الرف ونزلت السلم الذي أدركت لتوها أنها قد بلغت أقصاه، توجهت نحو المدخل أين كان يجلس رجل مسن، يضع نظارة ويحمل كتابا بين يديه بدا أنه غارق فيه، أمالت رأسها قليلا وقرأت عنوان الكتاب "الآثمة"، كانت قد سمعت عن هذا الكتاب من قبل، وعندما أعادت عينيها إلى الرجل وجدت أنه قد لاحظ وجودها أخيرا، قالت" لم .. لم أقصد التطفل، أريد فقط أن أسأل عن كتاب ربما تستطيع تذكر مكانه بالتحديد، قرأت عنه قبلا وقيل أنني سأجده هنا، وقد أخذت أبحث عنه لساعات دون جدوى"، أغلق المسن الكتاب ووضعه بالقرب واعتدل في جلسته، أزال النظارات، نهض من مكانه متجها إلى الرفوف وقال:"لمَ لمْ تسأليني فور دخولك المكتبة؟ أنتم الشباب تستهينون بذاكرتنا بطريقة سخيفة، أذكر أن حفيدتي التي كانت تبلغك عمرا أو أقل بقليل قالت لي مرة أن لعبة الشطرنج والتي كنت أربحها في كل مرة نلعب فيها، لا تحتاج أي ذاكرة، في حين أنه

على لاعب الشطرنج أن يتذكر جيدا كل حركة قام بها وأي منها كانت سيئة وأيها الجيدة، كانت على ثقة أنه لم يبقى في ذاكرتي مكان فارغ، جميعكم تستهينون بنا كثيرا " كان قد بلغ أول رف من رفوف المكتبة وتابع " أخبريني ما اسم الكتاب الذي كنت تبحثين عنه " فردت" مذكرات" ولمحت تغيرا في تعابير وجه الرجل المسن الذي قال :

" أنت ثاني شخص يسألني عن هذا الكتاب اليوم، لقد قمت ببيع النسخة المتوفرة ولا أظن أنك ستجدين أي نسخ لهذا الكتاب فقد ولى عليه الزمن، ولو أردت الصراحة، فإني لم أكن أعرف وجود هذا الكتاب في رفوف مكتبتي فقد أخذ الشاب ساعات من البحث ليجده، أعتذر " ومضى عائدا لمكانه، قالت ماندين وعلامات التعجب بادية على وجهها " هل كان هذا الشاب يتحدث العربية بصعوبة بالغة ويفوقني طولا " قال المسن وهو يجلس مكانه ويحمل نظارته مجددا " أجل، هل تعرفينه ؟!"

تمتمت ماندين بكلمات غير مفهومة، واعتذرت عن وقته الذي ضيّعته، اشترت كتاب مماثلا لما كان يقرأ كشكر له على خدمته، ودفعت الباب وخرجت.

في زحمة السير التي كانت تملأ كل شي، الشوارع الطرق، والبشر أنفسهم، خرجت فتاة من مكتبة

الإسكندرية بمصر وهي ترفع كتابا تغطي به عن الشمس الحارة صانعة لنفسها طريقا وسط تلك الزحمة حتى بلغت الرصـيف، رفعت يدها فتوقفت أمامها سـيارة صـفراء، صعدت وذكرت للسائق عنوان ما وانطلقت تلك السيارة.

جزء من الكتاب

في زمن غابر...

نهض الملك لتوه مفزوعا، شـــهيقه وزفيره يكادان يلتقيان في طريقهما العرق يتصـــبب من وجهه و يداه ترتعشان بشدة، كأن ملك الموت انتزع منه روحه وأفلتها لتعود مجددا لجســـده، كان يرى من قبل كوابيس رهيبة يجزع لهـا القلـب، لكن حلم هـذه المرة مختلف، مختلف تماما، نهض من مكانه وتوجه بخطى متثاقلة لشـــرفة غرفته التي تدخلها بعض أشـعة الشـمس صـباحا، والتي تطل على البحر، تقبع تحت تلك الشـرفة حديقة ضـخمة يملؤها شـجر الصـفصـاف بحفيف أوراقه ينشـر طمأنينته في المكان، وزقزقة الطيور وهي تصـنع أعشـاشـها تمنح شـــعورا خاصـــا، وليس ببعيد، يعزف البحر طربا في الصـخور صـوتا جديدا مع كل موجة آتية، نظر الرجل في تلك اللوحة الزرقاء أمامه، كان كل شـــيء بلون واحد إلا قرص الشـمس الأصـفر الذي اعتلا تلك اللوحة، ثم فجأة، مرت أمامه بعض طيور النورس بصوتها، تابعتها عيونه حتى ابتعدت عن رؤيته، كان قد ابتعد هو الآخر وحلق بعيدا- كل البعد -عن تلك الشرفة، قال في نفسه، ربما كان من الخطأ أن أرسل سفني إلى مكان نشك في وجوده ولم يرو عليـه إلا القليـل وربمـا كـان ذلـك القليـل من درب

الخيال، هل تقبع حقًا خلف كل هذه المياه أرض أخرى، هل هي مأهولة ببشر مثلنا ؟ أم أنها خاوية على عروشها، أهي قريبة؟ أم بعيدة عنا كل البعد؟ قبل أن تنطق شفاهه لحالها " هل البحارة على تلك السفن بخير؟"

سؤال عاد به من وسط المحيط لتلك الشرفة أخد على إثره شهيقا مريرا جاب أرجاءه " لا، هم بخير، لن يتركوا البحر ينال منهم، ولو يصلني يوما للشاطئ دم بشر، لقلت أن البحر قد نحر، ولا يأتيني ولو للحظة شكٌ أن مكروها قد أصابهم، ثم جابت خلده آلاف الأسئلة التي لا أجوبة لها، في الحقيقة، لم يكن لدى أي شخص في الأرض حينها أجوبة إلا البحارة أنفسهم، ورغم أن الجميع يبدي الأمل بأن عودتهم قريبة، إلا أنه وفي أعماق أنفسهم، كان الكل يدرك أن تلك السفن قد لاقت حتفها في البحر منذ زمن، فقد مرت أشهر أكثر مما أعدوا أنفسهم لها، ولا أحد يبقى حيا دون ماء وأكل كل هذه الفترة.

أعادته طقطقة خفيفة في باب غرفته لرشده، تبعه صوت فتاة خلف الباب.

- "أبي، أنت متأخر، لقد حظر الجميع وهم في انتظارك، أبي هل أنت مستيقظ؟" !

أزال نظره أخيرا عن البحر، استدار ودخل غرفته بخطى أقل تعثرا من سابقتها، كأن البحر قد أقامه من جديد- لطالما كان البحر بمشيئة من المولى يقيم كل من كان على وشك السقوط-، حتى وصل الباب وفتحه بجهد، ثم عاد أدراجه للشرفة من جديد، كانت تقف خلف الباب فتاة حسناء لم تبلغ العشرين بعد ذات أعين بنية وشعر شديد السواد كأنه الليل، وبجانبها فتاتين تحمل كل منهما طعاما بدا أنه أُعدّ منذ قليل، انتظرت لحظة ثم دخلت فرأت أباها عند الشرفة من جديد.

- " ها أنت ذا، الآن أفهم جيدا سبب تأخرك كل هذه المدة؟"

لم ينظر إليها حتى ظنت أنه لم يسمع ما قالت فأردفت بعد أن تأففت وبدا على وجهها علامات الشفقة:

-" لن يطول غيابهم يا أبتي أعلم جيدا أنهم سيعودون قريبا، الجميع فزع من تأخرهم كل هذه المدة وأعلم يقينا أن أمرا جيدا قد أخرهم، ربما وجدوا ما نصبو إليه، تلك السفن مليئة برجال يملك كل واحد منهم عائلة تركها خلفه تحت وصايتك أيها الملك، مؤمنون بقرارك، متعطشون لما ترنو إليه، وأنا أؤمن كما يؤمن الجميع أن قلق تلك العائلات لن يطول بعد الآن، ستعود السفن ومن عليها قريبا جدا."

لم تلاحظ على وجهه أي تعبير بل بدا شـــاردا بنظره شـاخصـا في الأزرق أمامه كمن يبحث عن صـوت واحد وسـط تلك الأصـوات الكثيرة، الطيور، البحر، وشـجيرات الصـــفصـــاف، كمن يبحث عن ســـفينة واحدة تزيل عن وجهـه كـل هذا الفزع، تقدمـت ابنتـه بـاتجـاهـه خطوات ومررت يدها على كتفه، شعرت حينها برعشة سرت به، كأن جســـده كان فارغا قبل أن تحتلته روح، كأن روحه كانت بعيدة وعادت للتو، ثم تابعت هي الحديث بإشفاق:

- " لا تقلق يا أبي، لم تأكل أي شيء منذ يومين وقد بدأ التعب ينال منك" .

استدار نحوها فرأى الخادمتين وهما تحملان الطعام بين يديهما، فقال محاورا ابنته:

"لقد أخبرتك من قبل ألا تتعبي نفسـك، سـأحضـر بعد قليل مع الجميع وجبة الغداء، كما أنني بخير فلا داع أن تقلقي نفسك يا عزيزتي"

"أنظروا من يتحـدث عن القلق، لقـد اعتكفـت في غرفتك منذ أيام ولم تعد تأكل شيئا، إذا استمر الوضع على هذا النحو فستمرض يا أبت"

توقفت لتشير للخادمتين أن تضعا الطعام على المائدة وقالت:

"على كل، لقد استقبل موسى الولاة جميعا منذ مدة، وحان الوقت الآن لتحظر إليهم فقد انتظروك بما فيه الكفاية "

أخذ الملك نفسا عميقا ثم قال:

"حسنا، أخبريهم بأني قادم "

هزت الفتاة رأسها و خرجت من غرفة أبيها مع الخادمتين فارغتي الأيدي وهي تحاول جاهدة ألا تفكر بالقصة من جديد، تحاول أن تبقي ما قالت لأبيها يطغى على الأفكار السيئة الأخرى التي جعلتها تبكي ليلا على "ساتل "الذي غادر على إحدى السفن، فكل ما قالته لوالدها لا يعدو أن يكون محاولة أن تقنع نفسها بأن عودتهم صارت وشيكة، رغم أنها تعلم أن شيئا فضيعا قد حدث، مما جعلهم يتأخرون كل هذه المدة، ربما قصة تلك الأرض مجرد خرافة كما يقول الجميع، فقد سمعت الخدم يتبادلون أخبار المدينة وما يدور في شوارعها، وأن الجميع قد فقد الأمل في عودة أبنائهم إليهم، وفي وسط حيرتها تلك، مر بها نعمان دون أن تنتبه لوجوده، نظر إليها نظرة خاطفة ومضى نحو غرفة الملك.

بعيدا عن تلك الشرفة، كانت بعض السفن تتخبط في عرض البحر، حاملة على ظهرها جثثا.

ماندين في السيارة

استخرجت هاتفها بعد أن انطلقت السيارة وكتبت في رسالة موجهة لشخص يدعى آدم:

"أين أنت؟ لقد وصلت منذ ساعات الآن وقد توجهت مباشرة نحو المكتبة كما أخبرتك سابقا، وقد قيل لي أن أحدهم قد أخذ الكتاب قبلي، هل كنت أنت؟"

وانتظرت قليلا حتى رن هاتفها برد من آدم:

"نعم إنه بين يدي الآن، لم أستطع الانتظار أكثر لتحضريه أنت، فتوجهت إلى تلك المكتبة صباحا وبحثت عنه بنفسي، وقد بدأت لتوي في قراءته، ستفوتين عليك الصفحات الأولى".

قرأت ماندين هذا ثم أعادت هاتفها لمحفظتها وراحت تنظر نحو نافذة السيارة، بدت المدينة كأنها على جمر، فالصحراء تبعد دقائق فقط من هنا والرياح تنقل الرمال الخفيفة من الصحراء إلى المدينة ليعكر صفو الجو فيظهر الهواء لمن يمعن النظر كأن به حبات رمل رقيقة، ولو توجهت صوب تلك الصحراء من هنا لوجدت نفسك أمام الأهرامات العظيمة، أمام الحضارة الفرعونية كأنك تنتقل من سنة الألفين بعد ميلاد عيسى عليه السلام نحو

خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد، تعيد هذه المدينة الذكريات إلى ماندين وهي صغيرة حين أرادت أن تسافر نحو مصر، فقد اهتمت بالتاريخ حينها وحلمت منذ نعومة أظافرها بأن تصبح عالمة آثار ومؤرخة، وها هي اليوم توشك أن تحقق ما طمحت إليه، ها هي على بعد أشهر من التخرج، قالت ماندين في نفسها وهي تنظر من خلال زجاج السيارة:

"أذكر أول مرة اشترت لي والدتي كتابا في عيد ميلادي، كنت حينها بعمر التاسعة، قالت لي حينها:

"الخيال هو كل ما يملكه البشر فهو كامن بعقولهم ولا سلطة لأحد عليه، أما غير الخيال، فالبشر عبيد كل بطريقته"

لم أدرك حينها ما تقوله وكنت متلهفة فقط لآخذ ذلك الكتاب من بين يديها، لكنها كانت من تلك الجمل التي علقت بذهني حتى هذا اليوم، كان الكتاب عبارة عن رواية لشاب كنعاني من مصر القديمة يروي حياته أنذاك، وقد بدأ الكاتب روايته تلك بعبارة..."

...من هنا ننطلق في رواية هذا الشاب وهذه المدينة العظيمة، لكن البداية ليست هنا، قد تسألني:

- إذن أين هي البداية ؟ !

فأجيبك ببساطة:

- "إنني لا أعرف، لأننا في الحقيقة لا نعرف التاريخ حق معرفة، لا نعرف متى بدأت تلك الحضارات العظيمة وكيف؟ لا نعلم كيف بدأ الزمن؟ ولا نعلم كيف شيد الإنسان تلك الأهرامات؟ ربما لأنه قد كتب للبشر أن ينسوا دائما البدايات تماما كما نسوا السنوات الأولى لولادتهم، ولو ظننت أننا نجهل هذا فقط فأنت مخطئ فنحن نجهل غير ذلك الكثير، إننا نجهل تاريخنا الحقيقي، نحن جاهلون لأنفسنا حتى".

أثارت تلك الجملة الكثير من التساؤلات في نفسي حينها وقرأت بعدها كثير الكتب عن مصر بحثا عن إجابة لتساؤل ذلك الكاتب،' كيف بدأت تلك الحضارة يا ترى ؟ '، لكنني لم أصل لما كنت أصبو إليه، لم أعرف شيئا جديدا البتة، بعض الكتب قالت أن مصر بنيت من السحر وبعضها أكد أن البشر لن يقدروا على بنائها في ذلك الوقت بتلك الوسائل وأنها مدينة من خارج الكوكب، فتوقف شغفي بالكتب وخاب ظني فترة لأنني أدركت أن الكتب قد لا تحمل لنا كل الإجابات لتساؤلاتنا وأن الكاتب قد يكتفي بقوله" لا أعلم " ، وأنا التي ظننت أن الكتاب يعلمون كل شيء، ثم عاد شغفي بعد أشهر حين أدركت أن الكتاب بشر أيضا والبشر جاهلون لأنفسهم حتى " ،

فقررت أن أسافر مصر، ضحكت أمي حين طرحت الفكرة وأنا بذلك العمر ذات صباح.

" أنستطيع أن نقضي عطلة الصيف بمصر يا أمي" سألتها.

- "ولم تريد فتاة بعمر الثانية عشر أن تسافر نحو مصر" قالت ذلك والضحك يغلبها.

-"أريد أن أرى الأهرامات وأن أعرف سر بناءها."

تركت ما بيدها وانحنت إلي حتى صرنا بمستوى واحد:

-" إنها بعيدة للغاية يا ماندين، لكنك ستريدنها مستقبلا، ستدرسين وتحصلين على وظيفة وتسافرين إلى مصر وترين الأهرامات."

هززت رأسي الصغير حينها وتمتمت:

- " أعدك أن أفعل" وابتسمت أمي في المقابل.

علمت أن والدتي قالت ذلك لتشجعني على الدراسة، وقد نجحت في ذلك، فقد عملت جاهدة أن أكون الأولى في كل شيء وأن أتفوق في دراستي على الجميع وبالفعل هذا ما حدث، ورغم أنني زرت بعدها مصر كثيرا، إلا أنني لم أذهب يوما نحو الأهرام، كنت في كل مرة أقترب منها، أخاف أن أفقد شغفي الذي كانت تمدني به تلك القصة،

قائلة في نفسي أنني سأتطوع لأكون من علماء الأثريات المصرية حين أنهي دراستي، والذين يجوبون القفار بحثا عن أسرار هذه الأرض محاولين فك رموز أعقد الحضارات، تخرجت بعدها بمعدل ممتاز في الثانوية، وقررت حينها أن أدرس علم التاريخ لكن أمي التي بثت في تلك الروح، قررت أن تأخذها مني عنوة حين وقفت مع والدي في قراره بأن أدرس شيئا آخر غير ما أردته، فقد أراد مني والدي أن أختار الطب تماما مثله، أن أكون خلفه في مهنته النبيلة كما يسميها، لكنني ألححت على رأيي واخترت دراسة علم التاريخ القديم، فقد كان ذلك كل اهتمامي، ورغم أن والدي لم يرغمني على تغيير رأيي، إلا أنه لم يكن راضيا.

" راضيا "، تخلق هذه الجملة بي إحساسا عظيما بالذنب، كأنني قتلت شخصا ورميته بغابة بعيدة وأنتظر بصبر أن يكشف أمري، أذكر حديث والدتي التي ساندت والدي في رأيه واختارت صفّه

-" أرجوا ألا تندمي عزيزتي في خيارك هذا، لا أذكر شخصا ناجحا خلده التاريخ كان عالما فيه، التاريخ وضع ليقرأ لا غير، لنقرأ عن العظماء في شتى المجالات، أولئك الذين قدموا إضافة للعالم، نحو رقي البشر، تماما كما يفعل الأطباء، لقد حصلت على المعدل المناسب، كيف يمكن أن تتخلي على حلم والدك بهذه السهولة فلطالما

أرادك أن تكوني بنجاح كنجاحه، أن تكوني خلفا له، فكري جيدا عزيزتي، لا تضيعي هذه الفرصة هباء فلا أريدك أن تندمي، كما أن دراسة التاريخ ليست بتلك الأهمية، هناك من العلماء ما يكفي لدراسة ذلك الشيء المنتهي الذي يدعى تاريخ، أما يدين إضافيتين في الطب تشفي ألف شخص يتألم. "

"حلم والدي" ،

أليس لكل شخص في هذا العالم حلمه الخاص ، حلم نقي لا يتدخل فيه بقية البشر ، لا يتدخل فيه القلب لو نشأ في العقل والعكس، حلم ليس لأحد سلطة عليه، كل شخص يمضي حياته لتحقيقه، هززت حينها رأسي غير موافقة فلم أرد أن أدخل معها في نقاش لأنني أتفهم جيدا رأيها، لطالما كان الجميع يرى والدي شخصا يحتذى به، حتى أمي نفسها، فقد كانت والدتي ربة بيت جيدة لا أكثر حين فشلت في الحصول على وظيفة بعد أن تخرجت في سلك الأدب الإنجليزي، عملت في بعض المدارس الخاصة لأشهر لكن ذلك لم يدم إلا لوقت قصير، ثم حدث أن أعجب والدي بها وتزوجا، واختارت بعدها أن تتوقف عن المحاولة واكتفت ب" ربة بيت جيدة " في سجل حياتها، أعلم جيدا لما ذكرت الندم حينها، ذلك لأنها نادمة على اختياراتها، فلم تردني أن أقع بها أيضا، غير أنني التحقت بكلية التاريخ، وها أنا ذا، على بعد أشهر من التخرج."

أخذت ماندين نفســـا عميقا و عادت تنظر للمدينة مجددا .لازالت المدينة على جمر، ولا تزال الصـــحراء قريبة من هنا، عادت ماندين تنظر للشارع مجددا دون أن تســـترجع أي ذكريات هذه المرة، رغم أن الذكريات لا تفارق النوافذ.

نعمان

-" كيف حالك سيدي "

قال نعمان محدثا الملك في الشـــرفة بعد أن أذن له بالدخول.

نظر إليه نظرة خاطفة دون أن يعطيه اهتماما كبيرا كما يفعل عادة معه، بقي الاثنان في وضـــعهما لمدة من الزمن حتى تقدم نعمان خطوات نحو الملك وواجه البحر هو الآخر وقرر أن يكسر ذلك الصمت قائلا :

- " لم يبق الكثير لنعرف كل شـيء، لم يبق لأبي بكر الكثير حتى يعود إلينا بأخبار جيدة"

-ألا تظن أننا تأخرنا بعض الشـــيء ؟ ، مهما تكن الأخبار التي قد يحملها إلينا الآن، فليس هنالك ما قد يشفع لي ما فعلته، أشعر أن جسدي لا يقوى على شيء الآن، كل ما أريده هو أن أستيقظ ذات صباح وعقلي في مكانه، أريد أن أرتاح، وأظن أنك أيضا تريد ذلك."

توقف ثم تابع الحديث من جديد:

- " كان يجب ألا نفعل كل ذلك دون تخطيط مسبق، كنا لنرتحل بأنفسنا ولا نرسل من ينوب عنا " قال الملك محدثا نعمان:

" ألا تظن أن هنالك من يستطيع أن يبحر لتلك الفترة ، ويصل لما نسعى إليه؟ "رد نعمان.

" كنت قد وضعت كل الثقة بالبحارة، بأنهم سيصلون لما نخطط إليه، لكن هاهم يرحلون دون أن يعودوا، وإن الأحلام تصور لي في كل ليلة كيف ماتوا."

أنتبه لنفسه حين قال كلمته الأخيرة، أدرك حينها أنه فقد الأمل الذي كان يعتقد أن لديه القليل منه:

- " لا بد أنهم مضوا نحو نحبهم، سافروا لأزيد من شهر وحين قرروا العودة كانت ذخيرتهم من الطعام والشراب قد نفذت فماتوا وبقيت السفن تحمل جثثهم في عرض البحر، ربما المبحر الأول نحو الأرض الأخرى قد أخطأ حقا في قوله إن مدة الإبحار هي شهران عكس شروق الشمس، إنها تتعدى ذلك بكثير"

-" ماذا عن أبي بكر، فقد بلغ أشده، لقد درس كل العلوم وتربى على السيف قبل القلم، وأصبح قادرا على أن يبحر لوحده"

سحب الملك نفسا طويلا عبر به عن كل أحاسيسه السيئة وقال:

- " سأترك الخيار له، فليس بمقدوري أن أرسل شخصا آخر ليموت يا نعمان، لقد وقفت في وجه مغادرته في المرة الماضية لأنني لم أكن متأكدا من أنهم سيصلون إلى تلك الأرض"

توقف لحظة ثم تابع:

- " أعلم أنك ستحكم علي، كيف أرسل البحارة نحو المجهول وأرسل ابني نحو مصر ؟!، ولك كل الحق في ذلك، لقد خشيت أن يحدث هذا، خشيت ألا يعودوا أدراجهم وتخطفهم الأمواج، وقد حدث ما كنت أخشاه"

" لطالما أراد أبو بكر أن يقود السفن بنفسه، وقد كان يعد الأيام يوما بعد يوم حين كانت تلك السفن تبنى، كان ينزل نحو الشاطئ بنفسه ليتفقدها، وفي مرات عديدة كان يساعد البنائين في طرق المسامير وقص الخشب، وقد حدثني في مرات عدة أن الوصول لتلك الأرض غاية سيدركها بنفسه يوما ما، وأنها حلمه الأبدي الذي سيعمل جاهدا ليحققه مهما كلفه الأمر ".

-" إنّ الذنب يعتصـــر فؤادي، ولا أقوى أن أرســـل شخصا آخر بعيدا نحو أرض لا نعلم أهي موجودة حقا ؟" قال الملك.

- " إنها موجودة، كل المخطوطات تخبرنا بذلك يا سيدي، رسالة المبحر الأول تلك، الرسومات من الكتاب، كلها تقودنا لتلك الأرض، لا تفقد أملك بهذه السرعة."

-" لم تقدنا لشيء، كل ما قادتنا إليه هو الموت. "

قال الملك ذلك بصـوت رهيب، كانت تلك المرة الأولى التي يشـاهده فيها نعمان في هذه الصـورة، كان يشـبه تماما ملك الموت.

لكنّه لم يتوقف عند هذا الحد، وتابع حديثه بصـوت أقل حدة:

- "لن أرسـل بعد اليوم أحدا نحو المجهول ولننسـى قصة تلك الأرض".

شعر نعمان بخيبة أمل كبيرة لسماعه هذا، ولكنه كان يشعر بالأسى أكثر لحالة الملك الذي عاش صديقا له وأخا قبل أن يكون يده الأيمن، اسـتأذن نعمان من الملك وانصرف مغادرا.

بعد دقائق معدودة، خرج الملك هو الآخر من غرفته، وفي طريقه، كان بعض الخدم الذين يمرون به يحيونه بعيون مشـــفقة تخبره لغتها بمدى روعة منظره، حتى وصـــل إلى باب كبيرة كانت تصـــدر من خلفها أصـــوات وضـــجيج، تنذر بعدد الأشـــخاص خلفها، اســـتجمع الملك قواه للمرة الأخيرة وفتح الباب بنفســـه، ودخل غرفة فسيحة بخطوات متثاقلة ووجهه أرضا على غير عادته، وقف الجميع احتراما وعم الصـــمت في المكان وتوقفت الأنفاس، فلا تسمع همسا غير خطوات قدميه وهي تتجه نحو الكرسي الذي كان يتوسط الغرفة وأعينهم تتبعه حتى بلغ كرسي كان يعتلي الجمع وجلس مستعيدا أنفاسه التي كادت أن تنقطع، ثم رفع يده و أنزلها في إشـــارة منه أن يجلسوا، كان هنالك إثنى عشرة وال يجلسون على يسار عرشـــه ويقابل كل ملك كرســـي آخر أين يجلس أبناءهم الذين يســـكنون القصـــر ولا يغادرونه إلا قليلا، وذلك ليتعلموا على أيـاد علمـاء جـامعـة تمبكتو التي احتوت علماء من مشـــارق الأرض ومغاربها احتكرهم الملك الأول لنفســـه، من أجل تعليم الأجيال القادمة في مملكته، كان يربي أبناء الولاة على الطاعة و لتهيئتهم للحكم كل خلف أبائهم، في حين أن حقيقة إبقائهم تحت رعايته في القصـــر فقد كان من أجل أن يحكم بقبضـــة من حديد على الولاة أنفســـهم وأن يربي أبنائهم كيفما شـاء فلا يخالفونه

ولا يخرجون عن سلطته، تفحص تلك الوجوه مرة أخرى قبل أن يتحدث قائلا:

" لقد جمعتكم اليوم لأقص عليكم قصة" .

راحوا يتفحصـــون أوجه بعض في حيرة، وقد أخذ بعضهم الظن بأن الإمبراطور قد بدأ يهذي، ثم أكمل قائلا:

-" قبل أعوام عديدة كان هنالك بحار عرف بالعظمة فترة قبل أن يعرف بالجنون هو وطاقم سفينته المشهورة "أنتاكريتا "حارب في صـــف مملكتنا قبل أن نســـترد أرضنا، ثم تحطمت سفينته في غمار تلك الحرب ومات كل طاقمه غير أن المولى لم يشأ أن تؤخذ روحه مع البقية، بعد تلك الحادثة ولوقع الصـدمة على نفســه فقد رشــده وتشرد بعدها في شوارع المدينة وقيل أنه جن في أواخر عمره إلا أن وجد ميتا في صـــباح أحد الأيام في طرقات شوارع المدينة ووجد تحته كتاب هش كان قد قطع بعض صفحاته ليتدفأ بها في ليالي الشتاء الذي سبق موته، كان ذلك الكتاب عبارة عن مذكرات له كتبها حين كان على رأس تلك الســـفينة وتحدث في كل الأوراق الباقية عن جزيرة كبيرة في عرض البحر زعم أنه وصـــل إليها واصفا كيف أنه قد عبر بحرا شاسعا في رحلة قال جميع من سمع القصـة أنها مزعومة، تحدث عن الطريق التي أبحر فيــه شـــهرين كــاملين دون توقف عكس اتجــاه

الشمس، ويصف تلك الأرض بأنها أرض جديدة وأنهم لم يلبثوا عليها سوى أشهر ثم عادوا، وبفعل الحرب التي نشبت هنا واشتدت حتى بلغت البحر لم يجدفون غربا لتلك الأرض من جديد، ثم تلى ذلك تحطم السفينة ونجا ذلك البحار في حين غرق كل طاقمه عن بكرة أبيهم وعاش بعدها والدمار يستولي عليه حتى مات."

ثم توقف فجأة متفحصا الوجوه من حوله وأكمل

"ظننت أن الوقت قد حان لنجد تلك الأرض وتكون لنا حياة فيها وربما أرض نضيفها لأرضنا ونكون السباقين لها، ولو كان بها بشر كنا علمناهم من علمنا وتعلمنا من علومهم، نشرنا ديننا ومذهبنا وكنا خير أمة بين الأمم "

توقف ليتنهد بقوة، كأن الكلمات قد أظلت الطريق بداخله، كانت هذه المرة الأولى التي يخطب في هذه القاعة بهذه الطريقة وعلى هاته الحال، كشخص يتوسل المغفرة والرحمة لما حدث لأولئك البحارة، كان الجميع مشفقا على حاله التي يرثى لها.

" لكن، ظني كان في غير محله، إني أشعر بصرخاتهم كل ليلة، تراودني كوابيس تستعصي على النوم حتى صار المغيب يرعبني وجفوني تنفتح كل ليلة على خفقان رهيب في القلب ورعشة تسري في بدني

الذي شاخ وما عاد يتحمل، وأظن أن الوقت قد حان لأرحم نفسي وأترك الحكم لشخص كفء غيري."

تلألأ وجه موسى عند هذا الكلام فقد كان ولي العهد الذي سيحكم خلف والده، كما ظهرت الدهشة على ملامح وجوه جميع الحضور الذين لم يصدقوا ما سمعوه، ثم توقف عند هذا الحد من الكلام، تفحص وجوههم من جديد لآخر مرة، ووقف الملك مغادرا الغرفة.

مرّت بعدها أيام لم يغادر غرفته، حتى قيل إنه قد مرض مرضا شديدا ينتظر بعده الموت...

سيارات الأجرة

الوقت الراهن.

لابد أن سائقي سيارات الأجرة هم أكثر الناس تعلما بعد طلاب الجامعات، فهم أكثر من يأخذون تجارب الحياة مباشرة من مصدرها، منا نحن، في وسط الحرب التي نخوضها كل يوم، في وسط الفوضى والدمار، في وسط الحزن والخوف، في وسط التشتت والذهول، في وسط دوامة شعورية تكتنفها السعادة والفرح في وسط حربنا وسلمنا، تجدهم بأحاديثهم التي يخوضونها مع ذواتنا بعفوية مشكوك في أمرها، يحدثونك عن يومهم لتجد نفسك تقص لهم عن يومك أيضا، عن محاسنه ومساوئه، وهذا ما حدث معي حين صعدت لسيارة الأجرة تلك.

قال السائق قاصدا خلق حديث بلكنة إنكليزية معربة

هل أنت أجنبية؟

صراحة، لا أعلم كيف يفعل العرب ذلك، لكنهم حقا موهوبون في تمييز من هم أجانب.

تحدثت العربية حينها :

أكاد أقول لا، لكنني أجنبية عربية الأصـــل، لقد كان والدي من طلاب الجامع الأزهر منذ زمن قبل أن يرحل للدراســـة في بريطانيا مكملا مســـار حياته هناك بعد أن تعرف على والدتي أيام دراسته.

ابتسـم السـائق عبر المرآة قائلا شـيئا ظل عالقا في مخيلتي لفترة طويلة بعدها

-" يبقى الوطن بشساعته في جيناتنا شيئا نعود إليه ويعود إلينا، شيئا جامدا يبادلنا المشاعر.

أخذت شـهيقا قبل أن أنظر للخارج، وقلت في نفسـي، فعلا، رغم أنني لم أزر مصـر كثيرا من قبل، إلا أنني وفي كل مرة أعبر شـوارعها المكتظة، أشـعر أنني بالقرب من شيء لم أفهم ما هو حتى الآن، طمأنينة من نوع ما.

تابع حديثه ظنا منه أنني أتيت سائحة

- هل زرت الجيزة قبلا ؟ لقد كنت أزورها وعائلتي كل شهر بانتظام وأوصيك بزيارتها إن لم تفعل من قبل، هناك نوع من السـحر يعم ذلك المكان وبطريقة ما في كل مرة كنت أقف أمام ذلك البناء الهائل يسـتعصـي على أن أرحل عن المكان وأكاد أعد الأيام كسجين لرحلتي التالية نحوه، لترد قائلة

-" لم أزره من قبل لكنني سأفعل هذه المرة، إنني هنا رفقة زميل في الدراسة لإنشاء مذكرة تخرج من أجل جامعتنا وقد كنا في حاجة لمصادر قيل لنا أنها موجودة فقط في مكتبة الشارع الكبير."

-" وهل وجدت مرادك اليوم هناك؟"

- "نعم، لكن زميلي قد سبقني إليه وها أنا متجهة نحوه لنرى هل يكفي للانطلاق في كتابة مذكرتنا."

- "حظا موفقا إذا " منهيا حديثه بابتسامة.

عم الصمت واختارت ألسنتنا السكون وعم بداخلي دفئ كانت مصر القريبة مصدره .فتحت الكتاب الذي اشتريته وفي صفحة عشوائية قرأت " ومن معلمي فيراس تعلمت أن البعد عن الديار مؤذ ومريح في آن الوقت، غربة مؤذية وحنين مريح " كأن الكتاب مصغي للحديث وأراد أن يخوض فيه.

دقائق معدودة، حتى ترجلت ماندين من السيارة نحو الرصيف الصغير بعد أن بلغت وجهتها، لينزل السائق وراح يستخرج حقائبها الواحدة تلوالأخرى وهي تبتسم له مرة وتشكره على مساعدتها مرات، ثم دفعت له ثمن التوصيلة جنيهات وابتسمت له مرة أخيرة نظير حديثهما في السيارة، رد هو الآخر بابتسامة عفوية ثم عاد إلى

سـيارته وعادت هي بعينيها تتفحص المكان، بدا لها أن شيئا قد تغير عن آخر مرة وقفت فيه بهذا المكان، المنازل اتخذت أشكالا أخرى غير تلك التي اعتادتها، والألوان قد أصبحت أكثر بريقا من ذي قبل، قالت في نفسها:

- " الزمن كفيل بتغيير كل شيء حقا" ،

كان بعض الأطفال يلعبون في السـاحات القريبة صانعين أصواتا وضحكات تملء المكان، وبعض النسوة على إحدى الشـرفات يراقبن أطفالهن ويلعنجو المنزل، كانت سـيارة الأجرة قد مضـت في طريقها، أما ماندين، فحملت حقائبها ومضـت نحو باب أحد المنازل الكثيرة، انحنت لتقرأ رقم المنزل وهي تنظر نحو هاتفها لتتأكد من أنها لم تخطئ العنوان، وراحت تطرقه طرقا خفيفا وما هي إلا لحظات حتى فتح ذلك الباب وظهرت من خلفه طفلة صغيرة.

-" أمي، لقد وصـلت ماندين" قالت الفتاة الصـغيرة وعيناها تشعان بهجة.

ظهرت على ماندين علامات السرور أيضا حين رأت الفتاة، وانحنت لتحضنها فترة من الزمن.

قالت ماندين:

-" لقد كبرت وزاد طولك هاا ... كم تبدين جميلة " وصنعت قبلة على خدها.

ابتسمت الفتاة الصغيرة نظير كلمات ماندين،- لطالما كانت المرأة الكائن الذي يحب سماع كلمات المدح والاهتمام الدائم حتى لو كان مصطنعا-، ثم فجأة ظهرت شابة في منتصف العشرينات أمامهما ترتدي سترة المطبخ كانت قد نادتها الفتاة الصغيرة قبل قليل، تبادلت وماندين الأحضان لحظات، وتحدثتا عن مدى شوقهما لمعرفة ما يجري في حياة كل واحدة منهما منذ آخر لقاء، ودخلتا.

عابر للصحراء

من الكتاب القديم.

كانت القافلة ضخمة بحيث لا يمكن لمن هم في المقدمة أن يروا آخرها، وفي المنتصف، نظر الفتى نحو السماء من فوقه، لقد كانت الشمس ترسل ألسنتها نحو الرمال فتكسبها حرارة رهيبة، مما يجعل المشي فوقها مستحيلا، كان يلاحظ طول مدة ترحاله ما تحتويه الصحراء، وحتى الآن، رأى الزوابع التي تنشأ في عرض الصحراء حاملة معها الرمال من مكان لآخر، كما رأى تلك المغارات التي يتخذها قطاع الطرق مكانا للنوم، وقد تساءل كيف يمكن لهم أن يعيشوا لأشهر في أماكن كهذه، وفي الأيام الأخيرة، فقد كان الفتى يراقب الجمال، قال في نفسه:

" لابد أنها تملك أرجلا قوية، فهي تمشي تحت هذه الشمس الحارة لأشهر حتى الآن ولا يبدو عليها أنها قد تعبت."

كانت تتحرّك كلها تاركة بينها مسافات صغيرة لا تتجاوزها، وحين تتوقف فترات ليرتاح الجميع أو ليأخذوا غذائهم قبل أن يعودوا للمضي قدما، كانت تعود هي أيضا

لأماكنها وترتيبها الذي كانت عليه قبل أن تتوقف، قال الفتى في نفسه مجددا:

" لابد أن كثرة الترحال قد جعلها تحفظ ترتيبها وتتعوّد عليه ولا ترتاح إلا في مكانها المعتاد.

غير أنه وفي أوقات أخرى، لاحظ أن بعضها تخرج عن ذلك المسار وتقرر أن تمشي وحيدة لبعض الوقت، وأن تترك في الرمال من تحتها آثارها الخاصة، وألا تتبع أحدا غير نفسها، غير أن الجمال الأخرى لا تعط أهمية لذلك، كانت تتقدم لتملأ المكان الفارغ فحسب، لا تخوض أي حديث مع ذلك الجمل المغادر ولا تطلب منه العودة لمكانه، ثم لا يلبث أن يعود بنفسه إلى المسار بعد فترة وجيزة، فتترك له الجمال الأخرى مكانه السابق كأن شيئا لم يكن، كأنها تعلم أن هذا يحدث أحيانا.

ينادي قائد القافلة بأعلى صوته:

" سنصل المعبد هذا المساء."

يردد قوله هذا وهو يمضي عكس اتجاه القافلة ليتأكد أن الجميع قد سمعه، فهو يعلم أن كلماته هذه تبث الروح في نفوس من معه، ويزيد هذا من وتيرة تقدمهم، ورغم أن المملكة لا تزال على بعد أيام، غير أن الوصول لآخر

معبد ليرتاح الجميع به فترة بعد أيام من الترحال يحدث فرقا فيما تبقى لهم من الطريق.

كانت القافلة مليئة بكل أعراق البشر، السود والبيض، العجم والعرب، المعلمون والحرفيون، التجار والباعة، وبعض ممن يتجهون نحو المملكة طلبا لحياة الغنى التي سمعوا عنها هناك، تذكر الفتى سؤال قائد القافلة عن نواياه من الرحلة قائلا :

"ما الذي قد يجعل شابا بهذا العمر يترك مصر ويتجه نحو المملكة البعيدة " ظنا منه أن الفتى عربي.

فرد بأنه قصد مصر من أجل بعض الأعمال، وها هو عائد نحو الديار، كان الفتى يعلم أن قائد القافلة قد سأل الجميع قبله حول نواياهم من رحلتهم هذه خوفا من قطاع الطرق الذين يدعون أنهم يريدون عبور الصحراء الكبرى من أجل البدء في حياة جديدة، أو أنهم تجار يبيعون سلعتهم، ثم في ليلة من الليالي التي يغط فيها الجميع في نوم عميق، يستولون على بعض الجمال التي تحمل بضائع ثمينة كالذهب والفضة، وينطلقون عائدين نحو مصر ليبيعوها هناك، ويعيشون بعدها حياة الأثرياء، وقد حدث ذلك مرات عديدة.

في الحقيقة، لم يكن لديه الكثير من الأموال ليخاف عليها أن تسرق، كل ما كان معه هو تلك الحقيبة التي

يحملها في كل مرة يرتحل، وتحتوي بعض الكتب التي يقرأها في طريقه ومذكرة صغيرة يكتب فيها بعضا مما يخطر بباله، وبعض الدنانير التي تكفي الطريق من الأكل والشرب لا غير، إلى جانب ذلك، كان الفتى يحمل صندوقا صغيرا كان السبب في ترحاله كل هذه المسافة

تذكر اليوم الذي كان فيه على وشك أن ينطلق في رحلته هذه نحو مصر، كان ذلك اليوم يصادف اليوم الذي أبحرت فيه السفن نحو المجهول، جلس الفتى على الشاطئ يراقبها وهي تبتعد في البحر، يرى حلمه الذي انتظره لسنين عدة يتبخر فجأة أمام عيناه، ويداه مكتوفتان غير قادر على تحريكها، فلم يشأ حينها أن يعصي أمر والده الذي طلب منه أن يرتحل نحو مصر بدل أن يبحر مع تلك السفن، استغرب كيف غير والده رأيه بين ليلة وضحاها، لطالما أخبره أنه من سيقود تلك الرحلة التي لن تبحر بدونه، غير أنه يوم انطلاقها يطلب منه أن يرتحل في الاتجاه المعاكس عبر الصحراء.

تساءل الفتى في مرات كثيرة عما قد يحتويه ذلك الصندوق، فرغم أنه لم يكن كبيرا ليتسع لشيء مهم، غير أن اهتمام والده الشديد به هو ما دفع بالشغف إلى نفس الفتى ليعرف ما بداخله.

حين وصـــل مصـــر، زار إحدى الكنائس التي أخبره والده عنها، أين التقى براهب أعطاه الصـــندوق دون أن يطلب شـــيئا في المقابل، قائلا بعد أن ســـأله أبو بكر عن الثمن.

" لم يخبرك إذا، لقد دفع والدك الثمن مســـبقا "وهو يبتسم ابتسامة ساخرة من سؤال الفتى، ثم أردف:

" كما أنه قد تحصـل على المفتاح "مشـيرا بيده للقفل الصغير على جانب الصندوق، ثم فجأة، صاح قائد القافلة مجددا قاطعا كل الأفكار في عقل الفتى:

" لقد وصلنا المعبد."

كان قد ظهر شـيء منه بالفعل، أسـواره شـاهقة بنيت من الطوب الكبير الذي لا تحركه زوابع الصحراء، في كل مرة كان الفتى يمر فيها على معبد من معابد الصـــحراء، تتملكه الرغبة في الجلوس خارجه فترة من الزمن ليتأمل أســـواره الدائرية الكبيرة، وبوابته الضـــخمة التي تســـع الجمال، كانت المعابد شـــيئا عظيما في نظر أبي بكر، فقد صـــنعها اليهود منذ زمن بعيد حين كانوا يجوبون الأرض من مكان لآخر، غير أنهم رحلوا عنها تاركين إياها تقبع وحيدة في الصـــحراء ليتخذها بعض البدو مكانا للعيش ثم صـــارت القوافل تتوقف عندها لتســـتجمع قواها من جديد لتمضي قدما.

أول لقاء

عند أول مكان ظل وجده، جلس الفتى وعلامات التعب بادية على وجهه، لقد أمضى ساعات يومه الأولى يبحث عن مكان له في السوق ولم يبق للظلام إلا ساعات قليلة ، استخرج من حقيبته قطعة قماش صغيرة وضعها فوق الأرض أمامه، وراح يستخرج بعض الكتب التي أنهى قراءتها منذ فترة، فكر بأن عليه أن يتعلم لغات أخرى ليقرأ بها، فلو كان بإمكانه ذلك لكان قد استبدل بعضا من كتبه بكتب جديدة من ثقافات أخرى في مصر، كما أن قراءة الكتب بلغة الكاتب نفسه تحمل مشاعر أكثر من تلك التي تحملها الكتب المترجمة، ففي بعض الأحيان حين يترجم كتاب ما، تستعمل كلمات قريبة في المعنى لعدم وجود الكلمات الدقيقة، فيحدث أن تختل رسالة الكاتب عندها.

نظر الفتى نحو الكتب أمامه، لم يعد يراها كتبا بعد الآن، لقد أصبحت عزيزة عليه بعد أن سافرت معه من مصر حتى هذه اللحظة لأشهر، وسهرت معه عديد الليالي التي قضاها بين قصصها، إلا أن أمر بيعها قد كان ضرورة لكي يشتري كتبا أخرى يقرأها فيما تبقى من طريقه، فما يملكه من مال يكفيه للأكل والشرب فقط، كان يؤمن دائما أن الكتب التي تشترى لا يجب أن تباع مجددا

أو تستبدل، عندما يشتري المرء كتابا جديدا ليقرأه فهو بذلك يكون قد فتح إحدى النوافذ لعالم لم يره من قبل، ومن غير المنصف أن يغلق نافذة بعد رؤية منظرها، كانت جل الكتب التي معه تتحدث عن الترحال، بعضها تقص عن كشافة ارتحلوا نحو أماكن يقال أنها حقيقية، وقد قرأ في إحداها عن رحلة يتحدث الكاتب فيها عن جزيرة صغيرة تحتوي رؤوسا ضخمة تخرج من الأرض كأنها غرست بها، ورغم أن القصص ليست كلها حقيقية، إلا أن الفتى كان يرى أنه لا بأس ببعض الخيال ففي بعض الأحيان يكون الواقع خيالا، وفي أوقات غيرها، يكون الخيال واقعا نعيش فيه لحظات سعيدة.

رتب الفتى الكتب أمامه، وراح ينظر من حوله، أسوار المعبد العالية تبث في النفس شعورا بالراحة والسكون، أما السوق فقد كان ممتلئا عن آخره، كانت أصوات الباعة تملأ المكان والمارة يتزاحمون ليروا السلع المعروضة، سكان المعبد يشترون البضاعة التي تحملها القوافل من مصر ويبيعون بضاعتهم من قماش وغيره لتجار القوافل الذين يعيدون بيعها أيضا عند وصولهم إلى وجهتهم.

بعد ساعات، كاد السوق أن يفرغ من الباعة، فالجميع الآن يبحث عن مأوى لليلته هذه، كان بعض الباعة قد نصبوا خيما بالقرب، والبعض الآخر توجه نحو مسجد

وكنيسة المعبد لينام بها، أما الفتى فقد استبدل كتابا واحدا وباع آخر وهذا يكفي حتى الآن.

" لا يزال هنالك متسع من الوقت قبل أن تنطلق القافلة مجددا، وقد أستبدل الكتب الباقية حتى ذلك الوقت وهكذا ستكفيني ما تبقى لي من الطريق "قال الفتى في نفسه.

ثم نهض من مكانه وراح يجمع أغراضه ليضعها في الحقيبة، وفجأة، وقعت عيناه على فتاة بالقرب تحاول جاهدة فتح صندوق صغير وضع هناك لجمع الرسائل، وما هي إلا هنيهة، حتى استطاعت فتحه واضعة به ما بدا له أنها رسالة ما، فقد كانت القوافل تنقل البضاعة والمسافرين من مكان لآخر، وإلى جانب ذلك، تحمل معها أيضا الرسائل في طريقها من أهالي المعابد التي تمر عليها نحو وجهتها، وضعت تلك الفتاة الرسالة داخل الصندوق ثم أنزلت رأسها لتضع عينيها على فتحته الصغيرة كأنها تودع رسالتها تلك، ظلت تنظر إليها فترة من الزمن لترتسم على محياها ابتسامة عفوية، ثم انتبهت للفتى الذي ينظر إليها، فاستعادت بسرعة وقفتها كأنها ضبطت تسرق للتو، أنزلت وجهها الأرض وتلونت خدها ببعض الحمرة، نظرت مرة أخيرة إلى الصندوق أمامها، ثم غادرت مسرعة، عاد الفتى بعينيه إلى كتبه وراح يجمعها، وفضل أن يضع كتابه الجديد في مقدمة الحقيبة.

"سـأقرأ جزءا منه هذا المسـاء " قال الفتى ذلك قبل أن يغادر نحو المسـجد أين سـينام الليلة غير مدرك أنه التقى للتو بفتاة يعود من أجلها لاحقا من وراء البحر.

ماندين تحمل الكتاب

راحتا تتحدثان بعدها لوقت طويل كما تفعل جل نساء العالم، كانت هناك كل أنواع الحكايات، تُقُص بلا ملل ولا كلل بكل تفاصيلها الصغيرة التي لا تعني شيئا، بلا توقف، حتى يظن من يستمع إليهما أن حديثهما لن ينتهي إلا بعد ست سنوات أخرى، كالتي غابتا فيها عن بعضهما البعض، هكذا هن النسوة في كل بقاع الأرض.

- " لقد مر زمن طويل للغاية، أكاد لا أعرفك عزيزتي ."قالت كاثرين محدثة الوافدة إلى منزلها والتي كانت تجلس في المعقد المقابل وفي حضنها الفتاة الصغيرة.

- "منذ يوم زفافك، لقد مرت ست سنوات على ذلك " ردت ماندين

- " أخبريني، كيف هو الشعور؟"قالت كاثرين وهي تحمل بين يديها كأس عصير موضوعة فوق المائدة.

- " أي شعور تقصدين؟"

- "ذلك الذي ينتابك الآن، وأنت على أبواب التخرج وحمل تلك الشهادة التي لطالما تمنيتها؟"

ارتسـمت البهجة على وجه ماندين حين تحدثت هذه المرة:

- " شعور لا يصدق، لم يبق سوى أشهر قليلة، أقدم فيها بحثي الذي أتيت من أجله، وبعدها، الآنسـة ماندين واربرغ الأولى من خريجة دفعة ألفان وثمانية عشـر، جامعة اكسفورد للتاريخ " راحتا تضحكان بعدها للطريقة الطريفة التي نطقتها بها.

-" آه لقد تذكرت "قالت كاثرين ذلك وهي تنهض من مكانها بعد أن وضعت الكأس على المائدة أمامها.

عادت وهي تحمل بيدها كتابا نحو مكانها:

" لقد مر شـاب منذ قليل، يبحث عنك، ثم حين أخبرته أنك لم تحضـري بعد، قال أن لديه بعض الأعمال لينجزها تاركا لك هذا الكتاب "ومدت يدها لتعطيها إياه.

أخذت ماندين نفسـا عميقا وهي تأخذه من بين يدي كاثرين، قائلة:

" وأخيرا ، ها نحن ذا نبدأ."

في المسـاء، قررت ماندين أن تقرأ بعضـا منه بعد أن لاذت إلى غرفتها التي جهزتها كاثرين لها، بدا كتابا عتيقا للغاية، غير أن حمله يوحي كم هو متين، راحت ماندين

تنظر في غلافه الذي بدى فارغا من أي كتابة، وقد كانت صفحته الأولى بيضاء تماما لا تحمل في طياتها شيئا غير عنوانه الذي كتب بخط اليد" مذكرات"، جلست في مكانها تحت ذلك النور الخافت وشرعت بعدها في القراءة.

لقاء آخر

من الكتاب العتيق.

في اليوم التالي، وبعد ساعات من الجلوس في السوق دون أن يحضر أحد ليشتري أيا من كتبه، توقف فجأة رجل لا يكشف من وجهه إلا القليل، كان يضع غطاءً على رأسه مرورا بالنصف السفلي لوجهه، فلا ترى منه سوى عينيه الغائرتين، إلا أن لباسه يدل على ثرائه الفاحش.

- " ما الذي تبيعه أيها الفتى " قال الرجل بصوته الأجش.

- " إني أبيع وأستبدل الكتب كما ترى."

- " وما الذي تقبله كبديل لكتبك؟.»

- " كتبا غيرها " قال الفتى.

ارتسمت علامات تعجب على وجه الرجل قبل أن تنطلق ضحكة منه

- "لم أرى تاجرا من قبل يبيع سلعته مقابل سلعة مثلها".

- "إنني لست تاجرا، كل ما أريده هو أن أستبدل كتبي هذه بكتب أخرى تؤنسني فيما تبقى لي من الطريق " قال الفتى

استعاد الرجل وقفته التي فقدها عند ضحكته تلك، وبدت على وجهه علامات الاهتمام

- "لقد سمعت كثيرا عما تحتويه الكتب، بعضها تقص قصصا تشد النفس إليها وتجعل العقل يرتحل نحو أماكن لم يزرها قط، وأخرى تعلم السحر الأسود والدجل " توقف للحظة وهو ينظر نحو الكتب، ثم أردف قائلا:

- " لم يسبق لي أن قرأت واحدا، لم أحسن يوما القراء."

انحنى الرجل وحمل كتابا بين يديه، ثم راح يقلب صفحاته بسرعة كشخص لم يحمل كتابا من قبل.

" ما الذي تبحث عنه في كتبك هذه ؟ "قال الرجل حين شخص ببصره في عيني الفتى .

كان سؤالا عفويا، لكنه أحدث ضجة في عقل الفتى جعله يرتبك فترة من الزمن، لم يسبق له أن سأل نفسه ما الذي يبحث عنه في كتبه هذه، لقد راح يقرأ منذ أشهر عن السفن والبحار، وقد عرف حتى الآن عشرات القصص والروايات عنها، ورغم أنه قد أراد السفر قبل

أشـهر من الآن وتحقيق حلمه الذي كان يسـعى من أجله منذ نعومة أظافره، إلا أنه لم يخض مغامرة حقيقية من قبل، فما الذي يبحث عنه بالتحديد؟

- "إني أقرأ عن البحار والسفن، عن تلك المغامرات التي قام بها البعض وكتبوا لنا عنها " قال الفتى ذلك رغم أنه لم يجد إجابة مقنعة في قوله عن السؤال الذي طرحه الرجل.

ما الذي كان يبحث عنه في تلك الكتب ؟!، فهو لم يبحر من قبل.

- " ومـا الـذي يفعلـه فتى يقرأ عن البحـار في هذه الصحراء القاحلة؟" قال الرجل.

ظل الفتى صامتا حينها، واختار ألا يجيب، فقد ظن أنه من غير اللائق أن يجيب على كل سؤال يطرح.

نهض الرجل وفي يده كتاب من تلك الكتب، واستخرج من حقيبته بعض المال، ودفع ثمنه قائلا إنه سـيهديه لصديق لينطلق مغادرا.

ومـا هي إلا لحظات، حتى وقعت عينـاه على الفتـاة صـاحبة الرسـالة التي كان قد لمحها البارحة، كانت متسـمرة بجانب الصـندوق تحمل في يدها رسـالة أخرى، غير أنها كانت تنظر نحوه هذه المرة.

الرسالة

كانت تبدوا فتاة فارهة، لابد أنها قد بلغت عقدها الثاني للتو، فكر الفتى، كانت تضع على رأسها غطاءا يقيها من الحر الشديد ذلك اليوم، وجنتاها متوردتان جراء الخجل، وأنفها معقوف بطريقة جميلة، لم يسبق له أن رأى فتاتا بهذا الحسن، أما عيناها، فكانتا تشبهان تلك اللآلئ التي رآها في البحر إحدى المرات والتي تغير لونها كلما أظهرتها للشمس أو أخفيتها، كانت تبدو عربية كاللواتي قد رآهن في مصر، غير أنها لم تكن بنفس لون بشرتهم، فقد كانت تميل إلى البياض الشديد الذي تظن أن لا مفعول للشمس عليه.

لم ترفع عينيها طول الوقت الذي كانت تقف فيه أمامه دون أن تنبس ببنت شفة، حتى ظن أنها ستظل متسمرة هنالك دون أن تتحدث.

ـ " هل أنت ذاهب نحو المملكة؟" قالت ذلك كأنها تقرأ أفكاره، بدا صوتها ملائكيا، كصوت صبية لم تبلغ العاشرة بعد. ـ "أجل، سأرتحل مع القافلة" ، قال الفتى.

ثم فكر أنها إحدى نسوة المعبد، فسكان المعبد وحدهم من يميزون الغرباء الوافدين إليهم عبر القوافل.

- " أريد أن أطلب منك معروفا " قالت الفتاة ذلك وتوردت وجنتاها. ثم توقفت هنيهة لتردف قائلة:

- " لقد كنت أرسل رسائل كثيرة مع كل قافلة تمر علينا، كل شهر في آخر سنتين مضت، غير أنني لم أتلق يوما ردا على رسائلي، التي بدأت أظن أنها لم تصل وجهتها، وقد رحت أبحث عن بديل أرسل عبره رسائلي، لكنني لم أجد غير القوافل سبيلا لذلك " ثم توقفت لحظة. لتكمل قائلة:

- " أيمكنك أن تحملها أنت إلى وجهتها وبإمكاني أن أدفع لك " ثم فتحت يدها الأخرى لتظهر بعض القطع النقدية التي لا يمكنك أن تشتري بها غذاء يوم واحد.

شعر الفتى بمدى نقاوة روح تلك الفتاة التي تقف أمامه، ثم راحا يتحدثان عن المعبد، عن القوافل التي تمر عليها، وعن رسائلها، وقد عرف من حديثهما أنها تعيش في المعبد منذ ولادتها ووالدتها، وأن جل رسائلها كانت لوالدها الذي غادر نحو المملكة للعمل منذ ثلاث سنوات، وقد كان يراسلهم هو الآخر ليخبرهم عن عمله هناك وعن مدى جمال المملكة التي تطل على البحر، كما كان يرسل بعض المال الذي يكفيهم بضعة أشهر لا غير، وقد حدث ذلك لأول سنة فقط، غير أن رسائله قد توقفت بعد ذلك، وتوقف معها قُوتُهُما الذي كانا يعيشان عليه،

فاضطرت والدتها للعمل، غير أنها مرضت لاحقا، مما جعل الفتاة تنوب والدتها في العمل، وكانت تعد الأيام منتظرة القوافل، لترسل رسالتها التي لم تفقد يوما أمل أن تستقبل ردا عليها، وراح يحدثها هو الآخر عنه، أنه هنا ليستبدل الكتب، عن رحلته نحو مصر وعن الأهرامات التي زارها ومدى ضخامتها، كما راح يصف لها المملكة وعن ضخامتها وعن العيش فيها، ورغم أنه لم يذكر إلا الشيء القليل، إلا أنها كانت منبهرة لقصصه.

" لا بد أن العيش في المدن أمر غاية في الروعة، البنايات الكبيرة والقصور الفاخرة والطرق والشوارع". قالت الفتاة.

واستمر حديثهما لساعات، حتى انتاب الفتى شعور أن الوقت قد توقف، وأنّ عقارب ساعات العالم نست نفسها، وما عادت تعرف كيف تدق.

ظن أن صوتها ينبع من السماء فقد أحس أنه يخفف وطأة الحر، ويبعث نسمة ريح عليل في المكان، كأن الريح تهب أينما حلت هي، حتى استفاق من غيبوبته تلك والشمس على شفى المغيب، أخذ منها رسالتها ودون مسكن أبيها الذي كانت تكتب إليه واعتذر لها لرفضه قبول المال الذي بحوزتها، كون الأمر هينا بالنسبة إليه:

" الأمر في غاية السهولة، لابد أن منزل أبيك ليس بعيدا عن مسكني، سأوصل له رسالتك هذه وأطلب منه أن يراسلك هو الآخر "قال الفتى. ليحيي على وجهها بسمة لم يرى مثلها قط منذ بداية حديثهما.

شعر على إثرها أنها على وشك أن تطير فرحا، وراحت هي الأخرى تشكره نظير معروفه وأنها لن تنسى ما فعله ما حيت، وما هي إلا لحظات حتى غادرت، وغادر هو الآخر، دون أن يتسنى لهما معرفة اسمي بعضهما البعض.

الفتى

في المساء ، صعد أسوار المعبد عبر السلالم الصغيرة التي تستعمل لترميم الجدران حتى بلغ قمتها، كانت الرياح التي تلفح وجهه آتية من الشرق حاملة معها أصوات كائنات الصحراء، وقد كان صوت ضغاء الأفناك القريبة والتي ألفت رؤية القوافل يعلو جميع الأصوات الأخرى، نظر الفتى نحو السماء، كان منظر النجوم من هنا أقل بريقا من ذي قبل، فقد كان يراقبها طوال فترة سيره من مصر ،ولأن القوافل لا تصدر الكثير من الأضواء وتفضل أن تطفئ شعلها ليلا خوفا من قطاع الطرق، فإن منظر النجوم كان أكثر وضوحا عكس المعبد الذي لا يخفي أنواره الكثيرة، ورغم كل ذلك، فإن منظر النجوم كان مهيبا من هذا المكان.

" ربما هذا العلو قد أحدث فرقا " قال الفتى في نفسه.

ثم فكر لحظة وأتبع حبل أفكاره...

" أو ربما قداسة المعبد ، أو ربما"...

تذكر عندها الفتاة التي حدثها اليوم، وشعر بأنه كان عليه أن يحدثها عن نفسه أكثر، وراح يتذكر قصصا

أخرى كان عليه أن يقصها أيضا غير أن ساعات هذا اليوم بدت ناقصة، فقد خيم الليل بسرعة.

" كان علي أن أسألها عن اسمها "قال في نفسه.

وتذكر بأنه لم يخبرها عن اسمه أيضا، ثم استخرج رسالتها التي كانت قد أعطتها إياه وراح يقلبها بين يديه، شعر بشيء يخالج قلبه وهو يتحسسها كما بدت تلك الورقة ثقيلة للغاية كأنها تحتوي صخورا لا كلمات، بعد لحظات من حملها أعادها إلى مكانها بين كتبه، ونظر نحو السماء من جديد، لا تزال النجوم في مكانها ثابتة، ولا يزال منظرها مهيبا من هنا، والريح الآتية من المشرق لم تتوقف بعد، كان كل شيء كالسابق، لكنه كان على يقين أن هنالك شيئا بداخله، قد تغير.

مر شهاب بين تلك النجوم من فوقه ببطء على غير عادة الشهب كأنه ينتظر منه ليقول أمنيته، كان يعتقد في قديم الزمان أن الشهب تجمع الأمنيات من أهل الأرض لتوصلها في طريقها للسماء، تذكر له أمنيتك وتنتظر أن تتحقق في اليوم الموالي، لكنه لم ينطق بشيء لذلك الشهاب واختار النظر إليه في صمت وأن يستمتع بمنظره فحسب حتى اختفى، لم يؤمن الفتى أن النجوم والشهب تحقق شيئا، كان يؤمن أن الأماني تذكر مرة واحدة في

أوائل العمر حين نسأل عنها وبعدها تبقى محفوظة في عقولنا حتى نسأل مجددا:

ما هي أمنيتك في هذه الحياة ؟ !.

يجيب الفتى :

"أن أبحر في الأزرق، حتى أبلغ تلك الأرض التي أريد أن أبلغها".

أمنية واحدة حقيقية لا يغيرها الزمن نمضي عمرا كاملا نسعى إليها، كان يؤمن أن لكل مخلوق في مشارق الأرض ومغاربها غاية خلق من أجل تحقيقها في فترة تختلف من شخص لآخر، ويموت الشخص بعد أن تنتهي تلك الفترة، سواء بلغ ما كان يريد، أو مات دون أن يدرك ذلك، وفي قرارة نفسه يعلم كل العلم ما الغاية التي خلق لأجلها، تفحص المكان وراح ينظر للسماء متمتعا بجمالها حتى غط في نوم عميق.

في الصباح التالي، استفاق الفتى في الساعات الأولى على غير عادته، وراح يتأكد أن حقيبته لا تزال بجانبه، بدت تلك الحقيبة أكثر قيمة مما كانت عليه، فرغم صندوق والده الذي قطع لأجله كل هذه المسافة إلا أنه لم يسبق له قبلا أن شعر بالخوف من ضياعها، ورغم أنه

كان على يقين أن السبب يعود لتلك الرسالة، إلا أنه فضل ألا يجزم بذلك، ألا يعترف لنفسه بشيء.

دقائق معدودة حتى وجد نفسه في السوق، في نفس المكان الذي التقى فيه تلك الفتاة، بسط قماشه على الأرض، ووضع فوقه الكتب التي لم يعد يعرف أيا منها قد قرأ ، مضى بعدها الوقت بسرعة دون أن يستبدل كتبه، في الحقيقة، لقد مر عليه شخص أو اثنان، غير أن حديثه القليل معهم كان سببا في رحيلهم دون أن يشتروا أي كتاب، فقد كان جل اهتمامه منصبّاً على ذلك الصندوق القريب أين يأتي سكان المعبد ليضعوا رسائلهم، كان يراقب كل شخص يقترب منه، ويزداد اهتمامه أكثر في كل مرة تقترب فتاة، غير أن الشخص المنتظر لم يأتي بعد، أو ربما لن يأتي مطلقا .

- " السوق يزداد تعداده كل يوم، أليس كذلك؟" قال صوت قريب يحدّث الفتى.

نظر من حوله إلى مصدر الصوت، ليجد أن هنالك امرأة أربعينية بالقرب منه تعرض بعض الأقمشة للبيع لم يلحظ وجودها من قبل .

- " أجل، لقد ازداد عددهم هذا اليوم" ، قال الفتى ذلك رغم أنه لم يلحظ أن أعدادهم قد ازدادت ولا يعرف حتى لم وافقها الرأي.

ربما لم يزدد عددهم أصلا، وأن المرأة تحاول فقط أن تصنع حديثا ككل الباعة الآخرين، فكل بائع تعرفه، يكون دائما هو البادئ بالحديث، يحدثك عن الطقس، عن أحوال بيعه، ويخبرك بأنه لم يبع اليوم من سلعته كما فعل بالأمس، وفي يوم ما، بطريقة تجهلها أنت، تصبح زبونا وفيا لديه، هكذا يكسب الباعة زبائنهم، ثم تابعت المرأة قائلة:"

"لقد كنت ألحظ وجودك هنا، هل أنت من باعة الكتب؟" سألت.

كانت تبدو لطيفة من حديثها، فرغم التصنع الذي يبديه الباعة كل يوم لزبائنهم، إلا أن هذه المرأة لا يبدو عليها أي من ذلك، شعر الفتى أن عليه أن يتوقف عن بيع كتبه، فقد أجاب مؤخرا عن هذا السؤال كثيرا حتى ظن أن باعة الكتب سيؤوا الحظ، فالكل يشكك في أنهم حقيقيون، ويلقون جل اهتمامهم بحياتهم الخاصة بدل الكتب التي يبيعونها.

" نعم ، إني أريد فقط أن أستبدل الكتب التي أملكها بكتب أخرى "أجاب الفتى.

ثم عم صمت طويل، عاد على إثرها الفتى لذلك الصندوق، وفي تلك اللحظة بالضبط، وجد أن هنالك شخصا يقف أمامه، إنها هي، فتاة الرسالة، كان يبدو أنها

هنا منذ فترة قصـيرة، تقف كأنـها متسـمرة في الأرض، تخفي يديها خلف ظهرها كأنـها تحمل بهما شيئا، وما هي إلا ثوان، حتى استخرجت كتابا ومدته إليه.

" أريد أن أستبدل هذا الكتاب بكتاب آخر "قالت الفتاة.

آرتيميس، فتاة المعبد.

- " إنه اسم مختلف، لم أسمع بهذا الاسم من قبل " قال الفتى محدثا إياها. - " إنه اسم إغريقي قديم، وأظن أن قلة فقط من يحملونه، لقد كان والدي يحب القصص الشعبية القديمة حتى أنه كان يحفظها عن ظهر قلب ليقصها في المجالس " قالت الفتاة.

- "اسمي أبو بكر " قبل أن يتذكر قول والده أنه لا يجب عليه أن يحدث أحدا عن اسمه في رحلته هذه.

-" أبو بكر؟" نطقت الفتاة اسمه وهي تدير عيناها حول المكان كأنها تحاول تذكر شيء ما.

- " إنه اسم عربي أليس كذلك؟".

- "بلى، لقد حمله صديق نبي المسلمين عليه السلام"

ثم راحا يتحدثان عن كل شيء، لكن هذه المرة، بدا الفتى أكثر ارتياحا في حديثه من ذي قبل حتى أنه أخبرها عن الصندوق الصغير الذي يحمله.

" لقد ارتحلت كل هذه المسافة من أجل هذا الصندوق ؟ "قالت مستغربة.

"وما الذي قد يحتويه ؟."

"لا أعلم، لطالما اهتم والدي بالقطع المنسية وتراث غابر الأزمنة، ربما تكون هذه إحدى تلك القطع "رد مجيبا.

راح يقص لها كيف أنه كان على وشك أن يبحر ليحقق حلمه، غير أن هذه الرحلة كان السبب في أن يحول الأمر دون أن يفعل.

تعجبت الفتاة من ذلك، فلطالما كانت تظن أن مصر هي حلم كل شخص، وبسبب تكلفتها، فقليلون أولئك الذين يزورونها ويتمتعون برؤية ذلك النهر الضخم الذي يعبرها، وتلك الأهرام التي قيل إنها تعلو أسوار المعبد بكثير.

- "وما الذي قد تتمناه أكثر من رحلة لترى بلاداً كمصر؟" سألته

- " رحلة نحو المجهول " قال الفتى ذلك.

ثم شعر بأنه قد تحدث عن نفسه كثيرا ليردف:

"حدثيني عنك آرتيميس" ، كان وقع اسمها على لسانه جميلا.

راحت هي الأخرى تتحدث دون ملل لساعات طويلة نسيا على إثرها الكتب والسوق وحتى الصحراء نفسها، غير أن الظلام قرر أن يقاطع حديثهما مرة أخرى، تبادلا

الكتب ثم رحل كل منهما في طريقه، دون أن يسألا عما إذا كان سيلتقيان غدا، كأن حديثهما لا يكتمل وأن هنالك الكثير من الحديث لم يحكى بعد.

في المساء، كان الفتى قرب بعض المجالس التي تتشكل أغلبها من تجار القوافل، كانوا يتبادلون الأخبار ويتحدثون عن مبيعاتهم وقصصهم التي لا يصدقها أحد، حتى هم أنفسهم، ومن بين تلك القصص، سمع شخصان يتبادلان الحديث

- " لابد أن الأمير الأكبر لا تسعه الأرض فرحا الآن، فإنه على وشك أن يحكم أكبر الممالك في هذا العصر"

- " لو كنت مكانه لكنت قد فرحت أيضا، لا أحد يعلو سلطاني، ولا مزيد من رحلات القوافل المتعبة " راحا بعدها يضحكان فترة، ثم أردف قائل:

- " لقد سمعت أن الملك على فراش الموت، وأن أيامه صارت معدودة"

- "نعم، لقد كان محبوبا في بدايات حكمه فقد أعطى الكثير للفقراء والمساكين، غير أنه كان عليه أن يسلم ابنه موسى الحكم قبل أن يتخذ تلك القرارات الغبية بسبب هرمه ومرضه"

ـ "أتقصد إرسال تلك السفن لمصيرها ؟ "إقال الرجل الآخر

ـ " أجل، لقد بغضه الكثير من سكان المملكة بعد أن فقدوا أبنائهم، خاصة عائلات البحارة "قال مجيبا إياه.

كان أبو بكر يستمع لحديثهما وهو يشعر بالصدمة، شعر أن الأرض من تحته على وشك أن تبتلعه لشدة ثقل جسده، ثم راح يسألهما عما إذا كان ما سمعه منهما حقيقيا، فأخبراه أن هنالك قافلة قد دخلت المعبد قبل قليل آتية من المملكة، وقد سمعوا تلك الأخبار منها، جمع الفتى بعدها أشياءه، وحمل حقيبته تلك، وراح يسأل عن قائد القافلة حتى وجده، تحدثا لوقت قصير، وما هي إلا دقائق، حتى بدأ قائد القافلة بالنداء بأعلى صوته:

" ستنطلق القافلة غدا باكرا ، اجمعوا كل شيء" .

وظل يكررها مرات ومرات حتى يتسنى للجميع سماعه، استنكر البعض ذلك كون أنهم لم يبقوا هنا سوى يومين فقط على غير العادة، وأنهم لم يأخذوا قسطهم الكامل من الراحة، فأخبرهم أن الأمير " أبو بكر " بنفسه من أمر بذلك.

مصدر الألوان التي نراها.

نهضت آرتيميس ذلك اليوم على وقع صوت الحمام والتي كانت تبني أعشاشها في السقف، كانت جل الطيور في المعبد إما حماما أو غربانا وقد حالفها الحظ لترى بعض العصافير التي تباع في السوق والتي انبهرت بأصواتها التي تطرب السمع، سبق لها في إحدى المرات أن ابتاعت أحدها، فاختارت التي تتزين بألوان لا تكل العين من التحديق بها، ذات صوت صاخب لا يتوقف، إلا أنها حزنت حين رأته بين قضبان القفص فقررت أن تعطيه لإحدى نساء القوافل، على أن تطلق سراحه حين تبلغ المملكة، عزمت أن تنهي عملها باكرا هذا اليوم لتنزل السوق بعدها، وما هي إلا ساعات قليلة، حتى كانت جل الأقمشة جاهزة، كان عملها يرتكز أساسا على إزالة لون الأقمشة القديمة والتي لم تفقد سمكها بعد، ليتم نقلها بعيدا نحو المملكة أين يعاد تهيئتها لتتخذ ألوانا جديدة، وتباع مرة أخرى، ورغم أنه لم يكن بذلك العمل الذي يضر عليها مالا كثيرا رغم مشقته، إلا أن الأموال التي تأتي إثره تلبي حاجيات يومها ووالدتها.

جهزت آرتيميس بعدها بعض الأكل الذي عزمت أن تعطيه لذلك الفتى الذي التقت به قبل يومين مقابل خدمته،

وخرجت قاصدة إياه بعد أن اطمأنت أن والدتها ليست في حاجة إليها فيما تبقى من النهار، كانت آرتيميس في غاية السعادة اليوم، ظنت أن السبب وراء ذلك يعود لكونها وجدت أخيرا شخصا مأتمنا يوصل حديثها إلى والدها، وربما، حينها، يمكن لها أن تسمع أخيرا أخبارا من والدها هي أيضا.

كانت الطريق طويلة لا تنتهي، وصلت أخيرا إلى المكان الذي ألفته في آخر سنتين، المكان الذي وضعت فيه آلاف الرسائل وألوفا أخرى من الدموع، ففي كل مرة تصل هذا المكان، كانت تشعر برغبة شديدة في البكاء، حتى صار المكان مظلما وموحشا بالنسبة إليها، لكنها لم تعد تشعر بذلك آخر يومين، كأنه قد اكتسب بعض الألوان التي تجعل رأيته تبث في الروح نسمة منعشة.

خطت الفتاة نحو المكان الذي اعتاد الفتى أن يجلس مع كتبه فيه، غير أنها فوجئت حين لم تجد له أثرا هناك، انتظرت لبعض الوقت، لعل أمرا قد أخره اليوم، لكن الفتى لم يظهر رغم مرور الساعات.

- " أيتها السيدة الصغيرة " قالت بائعة الأقمشة التي كانت قد رأتها آرتيميس بالقرب آخر يومين، محدثة الفتاة.

مشت إليها حتى وقفت أمامها وقالت:

- " نعم يا أماه، هل تقصدينني؟"

ابتسمت لها المرأة وقالت:

- "في الصباح الباكر، أتى إليّ فتى كان يبيع الكتب بالقرب مني، وقد سألني إذا كنت قد رأيته يحدث فتاة البارحة، فأجبته بأن الجلوس الطويل هنا يجعل المرء يلحظ كل صغيرة في محيط رؤياه، ليطلب مني أن أعطيك هذه الورقة، إلى جانب بعض المال ." ومدت يدها لتعطيها شيئا.

استغربت الفتاة ذلك لحظة، ثم راحت تسأل بائعة الأقمشة

- " ألم يذكر متى سيعود للسوق؟"

- "ربما العام المقبل، فقد رحلت قافلته هذا الصباح "قالت بائعة الأقمشة.

عندها، اختفت الألوان من المكان مجددا، وعاد الظلام إليه مرة أخرى رغم أن الشمس تتوسط السماء.

...

توقفت ماندين عن القراءة عند ذلك الحد، فقد أحسّت أن قلبها قد تمزّق، واضعةً الكاتب جانباً، على أن تقرأه في وقت لاحق، وخلدت إلى النوم.

رسالة من مجهول

كانت ماندين تتكاسل عن النهوض في اليوم التالي.

" النوم مخدر هو الآخر، غير أن القانون لا يعاقب عليه "قالت في نفسها.

حين ننام يتسنى لنا لأول مرة منذ استيقاظنا صباحا ألا نفكر بشيء، أن نكون أشخاصا دون ضمير ولا ألم، تماما كما يفعل المخدر، ثم نستيقظ لنواجه العالم، لنعود للتفكير مرة أخرى، لتأنيب الضمير بسبب شيء قمنا به، أو لم نقم، لذلك الألم الذي يعتصرنا، نتكاسل ونحاول بكل جهد أن نتشبث بالسرير لأطول فترة ممكنة كأننا ننتشي، غير أن لكل مخدر جوانبه المظلمة، فالذهاب للنوم يعد هاجسا لبعض البشر، تتخبط قلوبهم قبل أن يغلّفهم النوم، ويجتمع كل تفكير الساعات القادمة في تلك اللحظة، يجتمع معه الشعور بالحسرة، بالألم، وبتأنيب الضمير أيضا، عندها، لا يكون هنالك أي مفر، إما أن تعبر ذلك الحاجز لتنام، أو تنهض منسحبا من المعركة ، وتعود لتواجهه لاحقا.

"يجب أن أتوقف عن الأسئلة الوجودية مع الصباح " قالت ماندين ذلك وهي تنهض من مكانها.

توجهت نحو المطبخ بعد أن اغتسلت، لتتفاجئ بعدم وجود أحد في المنزل.

" آه ، تبا، لابد أنني تأخرت في النهوض "

نظرت نحو الساعة التي كانت عقاربها تشير للعاشرة والنصف، ثم انتبهت للطعام الموضوع على الطاولة، مع ورقة صغيرة بجانبه وضعت بشكل أفقي يساعد على ملاحظتها، حملتها وراحت تقرأها.

" عزيزتي ماندين، سأوصل سارة إلى المدرسة وسأشتري في طريقي بعض الأغراض، ربما سأتأخر قليلا لذلك أعددت الفطور، كما وصلت رسالة باسمك هذا الصباح، ستجدينها بجانب ملاحظتي هذه، اعتبري المنزل منزلك."

نظرت ماندين نحو المائدة مجددا لتلحظ وجود رسالة أخرى، حملتها وراحت تقلبها بين يديها.

" إلى ماندين واربرغ "قرأت الجملة على ظهر الرسالة كما ذكر أيضا عنوان منزل كاثرين، تعجبت ماندين، فهي لم تخبر أحدا أنها سوف تمكث هنا.

" ربما أرسلها آدم "تمتمت ماندين وهي تهم بفتح الرسالة، ثم راحت تقرأ محتواها

- "منذ فترة ليست بالبعيدة، كنت قد أنشأت مدونة لأشارك فيها اهتماماتي حول التاريخ، فقد كان ذلك كل شغفي، ليس ذلك التاريخ الذي يدرس في المدارس أو تجده في كتب المؤرخين، ولا ذلك الذي كتبه المنتصرون، فلطالما كان المنتصرون يرون آرائهم حقا وغير ذلك باطلا، فقد اهتممت بالجانب المظلم منه الذي يصعب الوصول إليه، وفي إحدى المرات، أعددت بحثا حول تاريخ قارة أمريكا، وذكرت فيه أن ما كتبته لم يكن محض خيال، وإنما كنت قد وجدت كتابا ذا قيمة تاريخية عظيمة اتخذته مصدرا لأبحاثي تلك، وقد أدهشتني القصة حتى ارتأيت أن تكتب إحدى الجرائد المحلية حول الأمر، لكنني قوبلت بالرفض في جل الجرائد التي راسلتهالأنه لم يسبق لي أن نشرت شيئا من قبل، فارتأيت مشاركتها في مدونتي، تلقيت بعدها رسائل كثيرة، هناك من تهجم حول مقال مدونتي قائلا أني أزور التاريخ وأنشر الخزعبلات، كما راح البعض يؤكد ما ذكرته، وقد كانت رسالتك من بينها، طلبت فيه أن أرسل لك نسخة من الكتاب، لكن بفعل بعض الظروف لم أستطع إرساله، فقمت بدل ذلك بوضع الكتاب بإحدى مكتبات مصر، وذكرتها في مدونتي، ظننت أنك مجرد قارئة لا غير تريدين الإطلاع فقط، فلم تذكري لي حينها لم قد تطلبين الكتاب، فلم أرد على تلك الرسالة، وبما أنك هنا، قاطعة كل هذه المسافة، فلا بد أنك تريدين نشر القصة آنستي ماندين، إن هذه رسالتي الأولى،

أخبرك فيها أن القصة حقيقية، وأن الكتاب الذي تحوزينه بحلول الساعة يساوي ذهبا، وأني لن أنفك عن مراسلتك مرة ثانية وثالثة مع تقدمك في قراءة الكتاب، لأخبرك بما أعرف أنا أيضا. "

شـــعرت ماندين برجفة في جســـدها، وراحت تقلب الرسالة التي لم يذكر عليها اسم المرسل أو حتى عنوانه، أيمكن أن شـخصـا كان يلاحقها في طريقها إلى المنزل؟ أصـابها الرعب حين فكرت في ذلك، كيف عرف اسـمها وعنوانها إذن؟ حملت هاتفها وراحت تكتب لآدم:

" لقد استلمت رسالة من صاحب المدونة، هل تحدثت إليه مجددا، هل راسلك أيضا ؟."

بعد دقائق تلقت ماندين رسالة رد:

" لا، لم أتحدث إليه، ولم يرد على رسـائلنا بعد، هل راسلك؟، سأكون هناك خلال نصف ساعة"

عند ذلك الحد، شـعرت ماندين بالفزع لأول مرة منذ فترة طويلة.

" أحد ما كان يراقبني ."قالت.

من صاحب الرسالة يا ترى؟

حملت الكتاب بين أطراف أصـــابعها، وقد تغيرت نظرتها إليه هذه المرة، بدا أكثر قيمة وغموضا من قبل، تذكرت كلمات الرسالة التي تلقتها قبل قليل.

- " كتاب ذو قيمة تاريخية عظيمة" ، تساءلت ماندين لمَ لمْ يرسـل الكتاب نحو مؤسـسـة رسـمية إذًا ليعرف تاريخه وقصته الحقيقية؟

ربما سـاعدوه في نشـرها للعالم، ثم تبادر إلى ذهنها كل تلك المواقع والمجموعات التي ينشـئها الهواة على مواقع التواصـل والتي يتم فيها بيع الآثار التي لا تقدر بثمن، لابد أنه أحد أولئك الأشخاص المهووسين بالتاريخ والذين يجوبون الأرض بحثا عن دسـائسـها، غير أن اهتمامه لم ينصب على المال.

- " ربما كان شخصا غنيا " همست شفتاها.

ربما كان يبحث عن الشـهرة عبر الكتابة في إحدى الجرائد عن هذه القصـة، ثم فتحت الكتاب وراحت تقلب صـفحاته دون أن تقرأ منها شـيئا، حتى بلغت صـفحته الأخيرة التي توقفت عندها، كان كل ما خط في جل أوراقه بلغة عربية، غير أن هذه الصـفحة تختلف، كانت لغة لم

ترى مثيلا لها من قبل، تمعنت فيها لحظات محاولة أن تجد حرفا أو كلمة رأتها من قبل، لكنها لم تجد حرفا واحدا رغم اطلاعها الواسع على بعض الكتابات القديمة جراء سنوات دراستها الجامعية.

فقد كانت حروفا معقدة، فكرت ماندين أنها قد تكون إحدى اللغات التي لم تعطى حقها، تلك التي تكلمها بضع مئات من البشر لا غير، فجأة، سمعت صوت الباب يقرع، ليقطع حبل أفكارها، وضعت الكتاب جانبا وتوجهت لفتحه، لتجد آدم يقبع خلفه، حاملا بين يديه بعض الهدايا قائلا إنها للفتاة الصغيرة التي كان قد التقاها بالأمس عند الباب

ـ " لقد تأخرت قليلا، إن الزحمة في شوارع القاهرة لا تطاق " قال

ـ "هكذا هي مصر، عليك أن تعتاد الأمر، يعيش في هذه المدينة بالضبط ملايين البشر " قالت ماندين ذلك وهي تبتسم مغلقة الباب من خلفه، لتقوده بعدها إلى قاعة الاستقبال.

ـ "أين هي كاثرين ؟" إقال آدم.

ـ " آه، إنها غير موجودة هنا، لقد ذهبت لتوصل ابنتها إلى المدرسة، وستعود بأي لحظة الآن " قالت ماندين ذلك ثم أردفت.

ـ " سأعود بعد دقائق " واختفت.

نظر آدم بخيبة إلى هداياه، لقد وعد سارة أنه سيجلب لها بعض الهدايا في لقائه القادم، وقد تملكه الحماس لرؤيتها وهي تشع فرحا حين تفتحها، ثم وضعها جانبا وجلس، كان شابا في منتصف العشرينات ذا شعر متموج ولكنة بريطانية خالصة، من عائلة كاثوليكية مصرية الأصل، غير أنه ولد وعاش بثقافة الأوروبيين، فلم يتكلم اللغة العربية التي حاول كثيرا تعلمها، حتى استسلم للأمر الواقع وقال أنّ تعلّمها أشبه بحل إحدى مسائل آينشتاين بالنسبة إليه.

بعد دقائق، عادت ماندين وهي تحمل كتابا وورقة بين يديها، جلست هي الأخرى وراحت تقص له أمر الرسالة التي تلقتها هذا الصباح، كانت دهشة آدم حين قرأها كتلك الدهشة التي تلقتها هي هذا الصباح.

ـ " لكننا لم نذكر اسمك في رسائلنا، ولم نخبره حتى بأننا سنزور مصر؟، كيف أمكنه معرفة كل ذلك؟"

ـ " ليس هذا فحســـب، بل إن كل ما أدهشـــني هو معرفته بمكان إقامتي، لم أذكر لأحد أني ســأقيم هنا، كما أنني لم أختر بين أن أســتأجر شــقة فندق وأن أقيم بهذا المكان حتى البارحة بعد أن ألحت كاثرين عليّ بالمكوث معها طول فترة وجودي بمصـر بذريعة أنها وحيدة وأننا لم نلتقي منذ سنوات عدة"

بدت الحيرة على وجهيهما، وغاصـــا في أفكارهما فترة، لتقطع ماندين ذلك الصـمت وهي تحمل الكتاب بين يديها.

ـ " لقد بدأت بقراءته، بالفعل " قالت ماندين ذلك وهي تقلب صفحاته حتى بلغت أقصاها ثم تابعت قائلة:

ـ " وقد شـدتني فيه هذه الصـفحة، أنظر، إن الكتاب كله قد خط باللغة العربية، غير أن الكتابة في صـــفحته الأخيرة كانت بلغة أخرى، إنها لغة غير مفهومة البتة " وأعطت الكتاب لآدم.

ـ "لم أر هذه اللغة من قبل " قال ذلك وهو يمعن النظر فيها بعينين نصف مغلقتين.

ـ " أرأيت؟ إنها لا تشـــبه أي لغة نعرفها، علينا أن نكتشـــف من أي حقبة هي، ربما يمكننا حينها أن نحدد تاريخ هذا الكتاب."

- " لقد قرأت صفحاته الأولى حين حصلت عليه بعد أن قمت بترجمتها، ورغم أن الترجمة قد كانت ركيكة بعض الشيء، لكن قراءة هذا الكتاب أشبه بقراءة إحدى الروايات " قال آدم.

كان ذلك التشبيه دقيقا في نظر ماندين، إذ أيا يكن كاتبه، فإنه بارع للغاية في نقل التفاصيل وجعلك تعيش تجربة الفتى أبو بكر، يسافر بك في الصحراء القاحلة حتى تكاد تشعر معه بحرّها.

قالت وهي تستعيد الكتاب من آدم:

- "إنه يتحدث عن فتى اسمه أبو بكر يجوب الصحراء، عائدا من مصر نحو مملكة لم يذكرها بعد، وأظن أنها مملكة مالي، هذا ما قرأته حتى الآن، وأظن أنه عليّ أن أسرع في وتيرة القراءة"

- " لم لا نزور أحد أساتذة التاريخ هنا بإحدى الجامعات؟ إن مصر تحتوي على أساتذة تاريخ أكثر من أي بلد آخر نظرا لاحتوائها على إحدى أهم الحضارات" ، اقترح آدم الفكرة، ووافقت ماندين على الفور، لأنهما بحاجة لمعرفة تاريخ تلك الكتابة، وأي لغة تلك.

اتفقا على أن يدبّر آدم لقاءا مع أحد الأساتذة غدا إن أمكنه ذلك، قبل أن يودعها ويغادر، لحظات حتى كانت

ماندين وحيدة مع ذلك الكتاب مرة أخرى، وعادت لتقرأ صفحاته، بشغف أكثر هذه المرة.

آرتيميس أخيرا.

أعلم أن كل شيء قد ينتهي في وقت ما، أن كل شيء قابل للنفاذ، كل شيء له حد مهما بدت ضخامته، كل شيء دون استثناء، المياه في المحيطات ستزول وتترك خلفها صحاري قاحلة، والبخار من السماء سينقشع يوما ليرينا ما خلفها، والشمس قد تختفي يوما ليحل الظلام للأبد، وقد يرحل أبو بكر فجأة.

عادت آرتيميس إلى بيتها، تجر خيبة ثقيلة وراءها، كانت تحمل في يمينها الطعام الذي أعدته، وفي يسارها، الرسالة التي تركها أبوبكر لها تحرق أطراف أصابعها، حتى بلغت بيتها، وجلست أخيرا تستعيد أنفاسها، وضعت الطعام جانبا وفتحت الرسالة ببطء شديد كأنها تأبى أن تفتح وراحت تقرأ

- " أتدرين؟ ... يحدث أن يتوفى أحدهم، تغادر الروح جسده التي لم تعرف غيره يوما، تصعد وحيدة نحو السماء في رحلة لم يسبق لها أن مرت بها، وعندما يحدث ذلك، فإن تلك الروح لا تودع الجسد، لأنها تؤمن بأن الله يبعث كل شيء حي مرتين، كما يؤمن هو الآخر، أنه في يوم من الأيام، تلك الروح ستسكنه من جديد."

"لقد اضـطررت أن أرحل نحو وجهتي التي أخبرتك بها، وهي بعيدة كل البعد عن هذا المكان الذي وددت لو أنني بقيت فيه مدة أطول، لكنني سـأعود في يوم من الأيام، أعدك، تماما كما تعود تلك الروح لذلك الجسد" .

أعادت آرتيميس قراءة تلك الرسـالة مرات ومرات، وحين أنهت ذلك، نظرت بجانبها إلى الأكل الذي أعدته، بدا كأنه قد فقد بريقه الذي كانت قد رأته به قبل قليل، ورغم أن رسـالتها قد انطلقت في طريقها إلى والدها مع أبو بكر، إلا أن آرتيميس شـعرت بحزن عميق يلفّ جسدها، علمت حينها أن سبب سعادتها قبل ساعة مضت لم تكن الرسـالة بحد ذاتها، إنما لشـيء آخر في نفس يعقوب.

أبو بكر يبتعد، ويقترب.

يخيم الليل على نصف الأرض ويخيم النهار على النصف الآخر سواء بسواء، فيحيي النور ما أماته الظلام، ويميت الظلام ما كان حيا.

بعد مرور أيام من انطلاقه، وذات فجر، كانت الشمس لا تزال ترسل خيوطها الأولى في السماء عندما استفاق الفتى، جلس في مكانه يراقبها وهي تصعد معلنة بداية يوم جديد لتزيل الظلام الذي خيم على العالم وتزاحم الليل ليرسل وحوش الغاب لجحورها في انتظار ليل آخر، وتزيل عنا تلك الأفكار التي عبثا حاولنا أن نخرجها من عقولنا، تلك الأفكار التي أهلكت أرواحنا.

نهض من مكانه بعد أن اتضحت له الرؤية، حمل زجاجة صغيرة من القطران كان قد سكب بعضا مما تحتويه بالقرب منه ليلة البارحة لتقيه رائحتها من الثعابين والعقارب التي تكثر قرب الرمال ليلا ووضعها في حقيبته التي يحملها معه، ثم جلس إلى جذع شجرة صغيرة من أشجار الصحراء ينتظر انطلاق القافلة مجددا، فلم يتبقى له سوى يومين على الأكثر ليصل أخيرا لمملكته.

في الأيام الماضية، ومنذ رحيله عن المعبد، لم يفارق خيال والده ذكراه، فقد رآه مرات في أحلامه منذ أن سمع أنه قد عكف إلى فراشـــه، وربما تكون هذه هي أيامه الأخيرة، كان يشـعر أن قلبه ينشـطر إلى نصـفين، وإن القلب لا يشعر بمدى حبه لأولئك الأشخاص القريبين منه حتى تأتي لحظة فراقهم، عند تلك اللحظة فقط لا غير، نتمنى لو أن الزمن يعود للوراء أياما، لنوليهم الأولوية في الود والحب، وننشـــأ معهم أحاديث كثيرة نابعة من الروح قبل اللســـان، غير تلك الأحاديث الجافة التي كنا نخوضها معهم، ولو قدر لنا أن نفعل ذلك، ما كان لأحد أن يحزن لرحيل الآخر، فهو على يقين أنـه لم يبخل يومـا بشـيء، فلا يؤنبه ضـميره عن تلك المرات التي أراد فيها الراحل أن يفتح حديثا وصـده عن ذلك، تلك المرات التي يكســـر الخاطر بها ، تلك المرات التي تأتي على إثرها الأحلام لتؤنب ضميرنا.

مرت عليهم بعض القوافـل، وفي طريقـه كـان يسـتقصـي وضـع والده، غير أن كل القوافل كانت تحمل الأخبار نفسها، الملك مريض وموته قد يكون بأي لحظة، زفت القوافل أخبار أخرى، أن السـفن التي رحلت لم تعد بعد، وربما لن تفعل.

الجامعة

نهضـــت مـانـدين مبكرا في اليوم الموالي، بعد أن أخبرها آدم ليلة البارحة عن الموعد الذي كان قد حجزه مع أحد دكاترة جامعة القاهرة، غيرت ملابســـها على عجلة وأخذت ملعقتين من الفول المدمس تحت إصــرار كاثرين.

" لم تأكلِ شيئا منذ أن حضرت، ستوبخني والدتك بعد أن تعودي إليها "قالت كاثرين وهي تحدث ماندين قبل أن تقف هذه الأخيرة وتنسل خارج المنزل.

لتكمل كاثرين قولها بصوت عال لتسمعها:

" وسـتظن حينها أنني لم أقم بواجب الضـيافة على أكمل وجه."

توقف السائق بجانب الرصيف قرب أحد الأبراج التي كـانـت تتوســـط الطريق الـدائريـة، نظرت مـانـدين نحو ســاعتها وانتبهت أن الوقت قد أخذ منهما نصـف ســاعة لتنتقل من مكان إقامتها إلى جامعة القاهرة رغم أنها ليست بالبعيدة، أشار السائق بيده إلى أحد الأبنية القريبة قائلا:

- " ها قد وصلت لوجهتك، هناك عند تلك الزاوية، ذلك هو مدخل الجامعة."

ترجلت من السيارة لتجد آدم بالقرب ينحني إليها من الرصيف وهو يبتسم، ثم تولى دفع الأجرة ودخلا بعد أن أخبرا الحارس عند الباب أن لديهما موعدا مع أحد الأساتذة.

كانت الجامعة شاسعة ذا نمط روماني قديم تتوسطها قبة في أعلى البناية رمزا للثقافة العربية الإسلامية وساعة تشير للحادية عشر والربع ذات أوجه رباعية تعتلي أحد تلك الأبراج.

سأل آدم أحد الطلبة المارين بلغته الإنجليزية عن مكان تواجد كلية الآثار فدلهما عليها، وما هي إلا لحظات، حتى وجدا نفسيهما أمام مكتب عليه اسم " الدكتور عبد الرحمان جلال" ، وما إن دقا الباب مرة واحدة حتى سمعا صوتا من الداخل يدعوهما للدخول فدخلا، رحب بهما الرجل ترحيبا جما ليجلسا على الكرسيين الوحيدين أمام مكتبه وما هي إلا دقائق من تبادل أطراف الحديث حول الطقس في مصر وكيف أنه يختلف عن موطنهما حتى سألهما عما يبحثان بالضبط ظنا منه أنهما من طلبته.

- " حسنا، نريد أن نسألك عن إحدى اللغات " قالت ماندين وهي تستخرج نسخة من إحدى صفحات الكتاب كانت قد أعدتها سابقا، ثم أردفت وهي تضعها أمامه:

- " لقد بحثنا في بعض الكتب القديمة، لكننا لم نصل لأي لغة تتشابه ولو بحرف واحد من أحرف هذه اللغة."

نظر الرجل في الورقة لبرهة متفحصا، مرر يده على كل حرف مكتوب واحدا تلو الآخر، فأخذت ملامح وجهه تتحول نحو الاستغراب،

- "صـــراحة، أكاد أجزم أنني لم أرى من قبل لغة كهذه، إنها قريبة لتكون رموزا مبهمة على أن تكون حروفا، أمتأكدان أنها لغة ؟" !

- " نعم، إنها لغة قديمة على ما أعتقد ؟ إمن زمن غابر " أجاب آدم.

- " لابد أنها إحدى اللغات التي تناثرت إذن أو نسيت ولم يصلنا منها ما يكفي لاعتبارها لغة، فهنالك الكثير من اللغات التي اندثرت مع الزمن كونها استعملت من طرف أقلية قليلة جدا لم يتركوا الكثير خلفهم، أهذه هي كل السطور الموجودة ؟ إأقصد، لو أن هنالك كلمات أطول لكنا قد حللنا رموزها، هل أستطيع أن أسأل ما مصدر هذه الكتابة ؟" !

نظرت ماندين نحو آدم الذي بادلها هو الآخر النظر كأنهما يسألان بعضيهما:

- " هل نخبره بالقصة ؟" !

- " نحن بصدد كتابة مذكرة تاريخية عن حياة الملك أبو بكر كمذكرة تخرج، ذلك الملك العالم الذي ترك حكم مملكته، و سافر عبر البحر ولم يعد، غير أن المصادر كانت جد قليلة في بريطانيا كما أن الثقافة الإفريقية قد نقلت بشكل خاطئ بعض الشيء للعالم الغربي وعند بحثنا هناك لشهر كامل في عديد من الكتب وسألنا عديد الباحثين عن سيرته الذاتية لم نتوصل لشيء يذكر وكانت القصة تختزل في أسطر قصيرة، تنتهي دائما عند الحد الذي يسافر فيه أبو بكر إفريقيا نحو المجهول وكل المصادر تقول أن البحر ابتلعه فهو لم يعد بعدها أبدا، حتى أتى ذلك اليوم الذي كنت فيه أقرأ مقالة على الانترنيت كتبت عنه بأدق التفاصيل، وكانت تشير تلك المقالة أنه وصل لبلاد العم سام وفي الأخير ذكر كاتب تلك المقالة أنه قد كتب كل هذا من إحدى الكتب التي قرأها صدفة في مكتبة من المكتبات المصرية وذكر عنوانه بالتحديد، فرحت بعدها أراسل تلك المدونة غير أنهم لم يجيبوا على رسائلي التي كثرت، فقررنا أنا و شريكتي أن نسافر إلى هنا لنبحث بأنفسنا عن ذلك الكتاب، وبدله، وجدنا مخطوطة صغيرة تحتوي على جديد من تلك القصة

المبهمة حتى الآن، والتي كانت تحتوي بعض الرموز والكتابات التي لم نفهم لغتها، وها نحن هنا نبحث عن إجابة لها. "

عاد الباحث بنظره للورقة أمامه ورمقها بنظرة مغايرة للسابق، كأنه أدرك قيمتها أخيرا، وتكلم قائلا:

- " أعني، حسب اطلاعي فإني لم أرى مثل هذه الكتابة، لا تشبه حروفها حروف أي لغة سبق أن رأيتها من قبل، لكنني أستطيع أن أسأل عنها أصدقائي من الباحثين لعلهم يعرفون عنها شيئا."

- " حسنا، سيكون ذلك جيدا، سنترك لك هذه النسخة فقد تساعدك " قالت ماندين هذا ثم استخرجت قلما وكتبت عنوان بريدها أسفل تلك الورقة وقالت:

- " هذا بريدي الإلكتروني، بإمكانك أن تراسلنا في أي وقت شئت، نحن نشكرك جزيل الشكر إزاء معروفك هذا.»

- " لا شكر على واجب، سأراسلكما غدا إذن بعد أن أستفسر لكما عن الأمر".

- " نحن ممتنون لك خدمتك هذه " قالت

استأذناه بالانصراف بعد أن شكراه مجددا، ثم خرجا حاملين خيبة أمل.

- "لم لم تخبره بأمر الكتاب، لم استبدلته عند حديثك معه بكلمة مخطوطة صغيرة " قالت ماندين بعد أن خرجا إلى الساحة العامة وبدآ بالمشي نحو المخرج

- " يجب علينا أن نحتفظ بشيء لأنفسنا يا ماندين، لابد أن ذلك الكتاب قديم جدا، أتدرين أن عجوز المكتبة لم يعلم بوجوده في رفوف مكتبته أصلا؟ لقد أعطاني إياه دون مقابل لقوله إنه قديم ولم يسبق لأحد أن جاء لطلبه، لو عرف الرجل أن لدينا مثل هذا الكتاب سيأخذه عمدا باسم حماية الآثار أو شيء كهذا، ولن يكون باستطاعتنا حينها أن نكتب مذكرتنا"

- " إذا كيف لكتاب قديم كهذا أن يترك هناك بهذه الطريقة ؟!."

" - حقيقة، لست أدري، كل ما أعرفه الآن هو أنه علينا أن نكمل قراءته كاملا، إنه يحتوي على كل ما نسعى إليه، إن الراوي فيه يعلم حقا ما يكتب، وكأنه كان مع أبو بكر لحظة بلحظة، لقد اندهشت من كثرة التفاصيل التي يحملها عنه" توقف ثم أعاد جملته:

- " لابد أن ننهيه بسرعة " بصوت خافت

- "سأتولى قراءته وأستخلص منه ما يهمنا وسأبدأ مباشرة بكتابة المذكرة"

كانا قد تخطيا حينها المخرج وهما يقفان الآن أمام الباب الرئيسي حين قالت ماندين:

" سأصب كل اهتمامي الآن على الكتاب."

ليهز آدم رأسه موافقا، نظر نحو الطريق ليتفحص العربات المارة من أمامه ثم رفع يده وأوقف أول سيارة صفراء تمر، وفتح الباب وقال مازحا:

" لتتفضل الآنسة ماندين."

ضحكت هي الأخرى ثم قالت وهي تصعد:

" منذ متى صرت من نبلاء القوم آدم دي سار بييرو؟ " واكتفى هو بالابتسامة ردا على ذلك.

انطلقت السيارة بعد أن لوحت له بلقاء آخر قريب، وراح يراقب تلك السيارة وهي تبعد حتى غابت عن نظره.

عندما وصلت المنزل، كانت كاثرين قد غادرت نحو عملها، فقد كانت تعمل كمدرسة أدب عربي في المدرسة الإعدادية التي تدرس بها الصغيرة سارة، الساعة لم تتجاوز الواحدة بعد، وضعت ماندين حقيبتها فوق أحد

كراسي مائدة الأكل التي تتوسط المطبخ، وقررت أن تعد شيئا خاصا لها.

" حسنا، سنكافئ أنفسنا الآن "قالت.

فكرت أن عليها أن تطهو من الأكل المصري الذي تعلمته ووالدتها في أيام خلت، فقد كانت والدتها تحسن صنع الأكلات البريطانية جيدا إلا أنها قررت لاحقا أن تتعلم طبخ بعض الأكلات المصرية لتفاجئ بها والد ماندين، ورغم أن ذلك قد كان صعبا للغاية، إلا أنها قد تعلمت بعضها مع والدتها حينها، وقد كان' الكشري ' أحدها.

انحنت ماندين وراحت تبحث عن مكونات إعداده، وما هي إلا لحظات حتى وجدت الأساسيات، وضعت بعض الماء فوق النار، ووضعت بها الإسباغيثي، وراحت تسلق العدس جانبا، بعدها استخرجت الإسباغيثي ووضعتها جانبا ، ثم أضافت بعض الرز إلى العدس المسلوق وراحت تقلي بعدها البصل إلى أن تغير لونه وتغيرت رائحته، لتضع القليل منه في إناء العدس والأرز، وبعدها أعدت الصلصة، وبعد دقائق من التحضير حتى كان كل شيء جاهزا، وضعت الأرز والعدس أولا لتضيف فوقهم الإسباغيثي، وراحت تصب فوقهم

الصلصة والبصل الذي بقي ثوان حتى كان جاهزا، نظرت إليه بعد أن وضعته فوق المائدة، وقالت.

" لن أتحسن يوما في الطبخ."

أخذت ماندين قيلولة ذلك المساء رغم أن مصر تؤمن أن نوم العصر يجلب النحس، وعندما استيقظت، قررت أن تكمل قراءة الكتاب.

المملكة مجددا

كان الليل قد خيم عندما وصـل إلى المملكة، منظرها بعث في نفس أبي بكر راحة لا تحدثها أي مدينة أخرى، كأنه يعود للأحضـــان بعد فراق طويل، وقد أحدث خبر وصوله الضجة التي لم تحدثها القافلة نفسها.

احتشدت حاشية قادمة من القصر تنتظر وصوله منذ لحظة دخوله أسوار المملكة البعيدة، وقد كان موسى في مقدمة الحاشية والذي بدا شاحب الوجه كأنه لم يأكل أو ينم منذ أيام طويلة، كانت تلك العلامات على وجه موسى خير دليل على الأخبار التي كان أبو بكر قد سـمعها في طريقه، راحت نبضات قلبه تتسارع، لقد تشبث بأمل أن تكون الأخبار زائفة أو لعله مرض مؤقت فحسب، يعالجه خيرة الأطباء التي تمتلكهم المملكة، وعند ذلك المشـهد، تلاشـت آخر ذرات الأمل التي احتفظ بها طول الطريق، فضـلا أن يلزما الصـمت وتبادلا الأحضـان فترة بدل الحديث، ثم توجها نحو القصر حتى بلغا أبوابه الضخمة أين هرول أبو بكر بخطوات مسرعة في أروقته حتى بلغ باب غرفة والده، أين وقف عندها فترة يسـتجمع قواه، قبل أن يقرر الدخول.

كانت أسمهان جالسة هناك قرب السرير، تمسك بيد كف والدها وبيدها الأخرى ظهر يده، وحين رأت أبا بكر، وقفت بسرعة لتمتلئ عيونها دموعا لم تطلق سراحها.

خطى أبو بكر بعض خطوات حتى بلغ ذلك المنظر المهول، كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها شخصا بتلك الهيئة المروعة، وحدث أن كان أول شخص هو والده نفسه، بدت عظام الوجه بارزة تكاد تكون مكشوفة لمن يدقق النظر طويلا، فعلامات الألم قد أحدثت به ما يشبه الحفر، حتى تكاد تجزم أن بعض القطع من وجهه قد أزيلت، غير أن والده تهلهل حين رأى أبا بكر، فحاول جاهدا النهوض من مكانه، حتى استوقفته ابنته، إلا أنه أبى ذلك واتكأ على ظهره ثم فتح يديه بصعوبة لأبي بكر الذي بادله الأحضان في منظر اختلطت فيه المشاعر بين الشوق والحزن، حتى سقط دمع أسمهان التي ظنت أنها محكمة إمساكه.

راحا يتحدثان في الساعات الموالية عن الرحلة، عن الطريق والقافلة، وعن المعابد التي مر بها، أحس أبو بكر بأن أباه قد جمع قواه كلها عندها، فقد راح يطرق السمع لحديث أبي بكر بانتباه شديد، إلى أن استوقفه

- "هل جلبته؟، الكتاب " قال الملك.

- "أتقصد الصندوق الصغير؟" رد أبو بكر

- " نعم، هل تحصلت عليه؟."

حينها، استخرجه أبو بكر من حقيبته وأعطاه لوالده الذي راح ينظر إليه بتفحص شديد، كأنه يبحث عن شيء ما، حتى وجد مكان القفل الذي وضع لمنع فتحه، ثم وضع الصندوق جانبا بعد أن أخذ نفسا عميقا كان عالقا في صدره لأشهر، اقترب الملك من أبي بكر، وأحكم قبضته على يد ابنه وقال بصوت أقرب إلى الهمس منه إلى الكلام.

" سأترك حكم المملكة بين يديك الآن، وستكون الملك من بعدي، لقد أعددتك طول هذه السنين لهذه اللحظة."

شعر أبو بكر بالذهول حينها، مثلما جرت قشعريرة في جسد أسمهان الواقفة بالقرب، فلم يسبق أن حدث في تاريخ العائلة أن حكم الابن الأصغر.

- " لكنني لا أهتم بالحكم، لم تكن السلطة يوما مطمعي، وأنت أدرى بذلك، أنت أدرى بما كنت أريده قبلا ."قال الفتى قاصدا الرحلة التي كان يريد خوض غمارها.

لكنه صار يشكك في حقيقة تلك الأرض المزعومة في الأيام الأخيرة، خاصة أن تلك السفن التي انطلقت قبل أشهر اختفت بمن فيها ولم تعد بعد.

"ستفعل ذلك، أعدك، لكن ليس الآن، ستعثر على تلك الأرض، وستعرف تلك الأسرار التي تمنيت يوما أن أعرفها، وستقرأ هذا الكتاب الذي أتيت به. " .

شعر الفتى أن أباه قد بدأ يهذي، وأن جل الكلام الذي ينطق به ما عاد ينبع من العقل، ألقى عليه نظرة مليئة بالشفقة والحزن للحالة التي آل إليها، فلم يصبح قادرا على خوض حديث دون أن يذكر تلك الخرافة، استدار على إثرها نحو أسمهان وفي وجهه علامات حسرة شديدة، أومئ لها، وما هي إلى لحظات قليلة حتى غادرا الغرفة تاركين والدهما ليرتاح، تاركا خلفه في تلك الغرفة، قصة الأرض الأخرى، وحلمه الذي انتظره لسنوات طويلة، فأبو بكر، لم يعد يؤمن بوجود أرض بعد البحار.

في فجر اليوم الموالي، نهضت المملكة على صوت الطبل مع مناد، كان ذلك صوت المُخبر الذي راح يصيح بأعلى صوته:

" لقد توفي الملك ؟."

ما سر تلك الكتابة.

الكون يبادلنا الشعور.

تذكّر دائما أننا من السماء، وما الأرض إلا رحلة باتجاهين لمرة واحدة، تذكر أننا سنترك هذا الجسد الذي يكسونا هنا ونصعد، سنترك تلك الكدمات والتشوهات التي نحتقر أنفسنا بسببها، سنترك قوتنا وضعفنا، خوفنا وشجاعتنا، بشاعة أو جمال مظهرنا.

إننا نعيش هذا الكون فترة ونعود من حيث أتينا، نحن ضيوف هنا لا أكثر ولا أقل، قل في نفسك محاورا روحك تلك:

" يا نفسي لا تطغي ولا تؤذي شيئا خارجا عنك، يا نفسي كوني متسامحة مع ما وجدته هنا حين نزلتي من أقطاب السماء حتى تعودي إليها، كوني على فطرتك التي خلقتي عليها أول مرة."

وستجد أن الكون يبادلك الأفعال، لكن، وأنت تتحدث، اعلم أن هنالك من الأرواح التي لن تسمعك، فالصم أكثر ما يعرف البشر به، يولدون بسمع حاد، يتعلمون مكارم الأخلاق والعيش بود، الاحترام والخير، يتعلمون أن الأبوين بعد الخالق، وأن الآخر أيضا بشرٌ يبحث عن

ضـــالة في الأرض تماما كما يبحثون هم ويتعلمون أن الخطأ خطأ بالفطرة وسيؤذيهم، وأن الصواب يزيدهم قوة ولو بعد حين.

حين يبلغون أشـدهم، ينسـون كل ذلك ويرمونه بعيدا عنهم، ويتخذون قانونهم الخاص طريقة يتعاملون بها بحجة أن الفطرة ليست قانونا ثابتا وأنهم خلاقون، ناسين أن صـــفة الخلق للخالق، ولكنها مجرد فترة من الزمن حتى يصـــيب الصـــم آذانهم، ويســـكن المرض روحهم، لتجدهم يعيثون في الأرض فسادا.

قرأت ماندين هذا في الصباح الموالي من الكتاب الذي كانت قد اشـــترته من المكتبة، وقد بدا لها وكأنه يحاور روحها، توقفت عن القراءة في تلك الأسـطر وقررت أن تتصـــفح بريدها الإلكتروني، لتجد رســـالة من دكتور الجامعة الذي زارته البارحة، يطلب منها الحضـــور إليه بحجة أنه قد توصـــل إلى شـــيء جديد حول تلك اللغة، راســـلت على إثرها آدم الذي اعتذر عن القدوم قائلا أنّ لديه أعمالا أخرى عليه القيام بها، فاضـــطرت أن تذهب لحالها.

عندما وصلت مكتبه، قيل لها أنه يقدم محاضـرة الآن وعليهـا أن تنتظر لينتهي، غير أنهـا طلبـت رقم حجرة تدريســـه، وقررت أن تدخل المحاضـــرة، وعندما فعلت،

جلست في آخر الصف، وراحت تستمع إلى كلامه، أظهر جدية أكثر مما رأته بها حين التقته البارحة، حتى ظنت أنه شخص آخر، استغربت حينها، من أين يأتي الأساتذة بكل هذه الجدية في الصف، وهل يقضون حياتهم الخاصة بهذه الشـــاكلة، حين انتهى، عكف بعض الطلبة عنده ليسألوه بعضا من الأسئلة التي يظنون أنها لن تستطيع الانتظار لمحاضرة قادمة، وأن العالم سينتهي لو أنهم لن يعرفوا إجاباتها، وحين فرغ، تقدمت إليه، تبادلا التحية وراحا يتحدثان مجددا عن الطقس وهم في طريقهم إلى مكتبه، كأن الطقس مهم.

"قد خيل لي أني قد رأيت مثل تلك الرموز من قبل، فرحت أبحث البارحة لساعات، حتى كدت أفقد الأمل في أني قد أصل لشيء ما، ولكن، دائما ما كانت لحظة انتهاء أملنا هي نفسها اللحظة التي نصل فيها لما نرومه، فقد وجدت حروفا مشـــابهة في إحدى الجدران الداخلية للأهرام المصرية، وكان ذلك في هرم خوفو بالضبط"

شعرت ماندين بالبهجة لأنها توصلت لشيء أخيرا، ثم تابع بعد أن استخرج بعض الصور التي كان قد طبعها، وراح يريها إياها:

- " أترين، إنها نفس الأحرف بالضبط."

- وما الذي تعنيه تلك الكتابة؟ "قالت

ـ " هنا يقع الشـــيء الذي أثار دهشـــتي، لم يعرف تاريخها ولا ترجمتها حتى هذه الســـاعة، لقد ظنوا في البداية أنها رموز فقط، غير أن تنظيمها وطريقة توزيعها توحي بأنها لغة ما لم ينطق بها إلا قلة قليلة في ذلك الوقت " توقف لحظة ثم أكمل " وأن تظهر نفس اللغة في مكان آخر، في مخطوطتكم التي تحدثتم عنها، دليل على أهميتها."

" أيمكنني زيارة المكان، أقصـد، مكان وجود الكتابة داخل الهرم، هل هو مسموح للزيارة ؟"

ـ "نعم، أتفكرين في الذهاب لزيارته؟"

ـ "أظن ذلك " قالت ماندين

عدّل الدكتور من جلسته وقال محدثا إياها

ـ "أيمكنني أن أرى تلك المخطوطة؟ أعني، لعلني أستطيع أن أستخرج شئا آخر منه."

ـ" لقد كان آدم على حق حين أخفى موضـوع الكتاب "قالت ما ندين في نفسها

ـ " لا يوجد بها شـيء آخر غير ذلك الذي بين يديك "قالت ماندين وهي تقف، واستكملت:

- " أرجو أن تطلعني بما قد يسفر عنه بحثك، يمكنك أن تراسلني في أي وقت تشاء و سأتأكد بنفسي أن أضع اسمك في الإهداء"، ودعته، وخرجت تحت نظرات غريبة منه.

حين بلغت ماندين الأهرام، شـــعرت بأنها تعود في الزمن إلى الوراء، ظلت مســـمرة هناك لدقائق معدودة، تذكّرت السائق الذي نصحها بزيارة المكان، أحست حينها بمدى صغرها وهي بجانب تلك المعالم هائلة الضخامة، كانت هذه أولى زياراتها لهذا المكان رغم أنها زارت مصر من قبل، وقد أحست أنها أضاعت الكثير، انضمت إلى إحدى المجموعات، ودفعت نصف ثمن دخول الأجانب بعد أن تكلمت العربية وهي تدخل الهرم الأكبر، كان كل شـــيء مثاليا من الداخل، فقد قرأت عن مدى دقة الحسابات التي بنيت بها الأهرام، حتى قيل أنه يستحيل على البشـــر في ذلك الوقت أن يبنوا مثل هذا الصـــرح، تكلمت إلى قائد المجموعة، عن مكان تلك الكتابات، وقد وعدها أنه سيدلها عليها في نهاية الجولة.

وحين بلغت المكان، راحت تمعن بها فترة، كانت لغة الكتابة على الجدار تشبه تماما تلك اللغة التي كتبت بها الصفحة الأخيرة من الكتاب، غير أن ترتيب الأحرف بدا مختلفا، مما يدل على أنها لم تكن تحمل نفس المعنى،

أخذت بعض الصـــور بعد أن تأكدت أن ذلك مســـموح، وغادرت.

الزجاج بداخلنا

من الكتاب القديم.

كان قد مضى شهر منذ تلك الليلة التي جلس فيها أبو بكر مع والده في تلك الغرفة التي أوصدت أبوابها وظلت مغلقة على سوادها، كان الملك أبو بكر يزور قبر والده كل يوم في الأيام الأولى، غير أنه توقف بعدها، فقد أدرك أخيرا أن الحزن لا ينفع خلف الراحلين، بل إنه يبث فينا ضررا عظيما لو علمنا، حين يرحل عنا أحدهم، يترك خلفه تلك الذكريات التي نتمنى لو أنها لم تكن، لو أنه باستطاعتنا استبدالها بكلمات بسيطة لا تثقل الذاكرة، ذكريات غير قابلة للاسترجاع، تمحى بسهولة حين يرحل عنا صاحبها، نعيش بعدها بهدوء، أحس أبو بكر حينها بذلك الشعور الذي وصفته آرتيميس له حين أخبرته عن شوقها للقاء والدها، تذكر فجأة رسالتها التي أنسته وفاة والده أن يوصلها إلى وجهتها، فقرر أن ينزل في الحال إلى ذلك العنوان.

كان الليل على أهبة أن يخيم حين وقف أبو بكر أمام أحد البيوت، كان صغيرا لا يسع شخصين حتى، غير أنه بدى مهجورا منذ فترة طويلة، وقد تآكل جزء من بابه المفتوح على مصراعيه، كما بدأت بعض الحشائش

الصغيرة تنموا فوق سطحه، ظهر أحد الخدم من العدم ومعه شخص ما، تقدم خطوات حتى صار بمقربة من الملك أبو بكر، وقال الخادم:

- " أجل، هذا هو المكان سيدي، وقد تكلمت مع أحد الجيران " صمت حينها ورمق الشخص الواقف بجانبه بنظرة خاطفة، نزل ليلمس تراب الأرض بيده، كانت تلك طريقة المملكة في تحية الملك، ليستكمل الخادم كلامه محدثا الشخص الواقف:

- " أخبر الملك بما أخبرتني به سابقا."

- " لقد ... لقد توفي صاحب البيت منذ عامين ونصف تقريبا يا سيدي، وقد رحنا نبحث عن أسرته في المدينة فلم يخبرنا عنها مطلقا، إلا أننا لم نجدها، فدفناه بأنفسنا دون أن نعلم أهله "قال ذلك الرجل متلعثما.

كانت تلك صدمة أخرى يتلقاها أبو بكر، أدرك حينها السبب وراء عدم رد والد آرتيميس على رسائل ابنته، نظر نحو البيت مرة أخرى، وقرر أن يدخله، كانت خطواته تحدث صدى في ذلك البيت المهجور إلى جانب صوت بعض الرياح التي كانت تصدر صفيرا في السقف المكسور، سمع ذلك الصوت وانتبه لقلبه الذي لا يكاد يسمعه، أ ليست كل الأشياء المكسورة تحدث صوتا ؟!، أم أن الرياح لم تعد تهب بداخله، يتساءل كيف توقفت تلك

العواصـف التي كان يظن أنها في شـريان قريب لقلبه، وكأن طمأنينة من نوع ما قد حلت بداخله بعد أول خطوة خطاها في هذا البيت، كان يبدو بيتا دافئا رغم منظره الموحش، رغم أنواره التي انطفأت وحل بدلا منها ظلام غاشم، كان فارغا تماما، من أي شيء غير رائحة حطب الأرض المبلل، فقد كانت بعض المياه قد انسـابت عبر فتحة السقف إلى أحد زواياه، عاد من حيث جاء، و أوصد الباب من خلفه..

مشى خارج البيت وابتعد بخطوات تتابعت، قرر أنه قد حان الوقت ليواجه خوفه أيضا، ليدخل غرفة والده مثلما دخل هذا البيت، غير مدرك ما ينتظره بها.

الغرفة الموصدة.

وقف أمام تلك الغرفة واضـــعا راحة يده على بابها وتوقف لحظة ليتأكد أنه قادر على تحمل ما فيها، ثم دفعه ببطء شديد كأنه يزن أطنانا- الأشياء الثقيلة هي تلك التي تزنها قلوبنا-، كانت تلك المرة الأولى التي يفتح أحد باب غرفة الملك منذ أن توفى فقد ظلت موصدة لا يدخلها أحد، حتى عمال القصـــر لم ينظفوا منها الغبار، كان أبو بكر يظن أنه أشـد من حزن على رحيل والده لكن هذه الغرفة تظهر كآبة وحزنا عميقا كأنها في حداد، الظلام يحل على نصـفها والنصـف الآخر يدخله نور خافت من الشـرفة الموصدة، تقدم خطوات نحو تلك الشرفة ثم فتحها ليدخل النور ومعه ريح خفيفة من البحر القريب، مشـــى عائدا نحو الباب وأوصده و راح يمعن النظر في كل تفاصيلها الصغيرة، كل شيء كأنه يراه لأول مرة.

كانت غرفة ملك لكنها تظهر بسـاطة الشـخص الذي كان يسـكنها ففي جانبها الأيمن خزانة صـغيرة بها كتب قديمة وفوق الخزانة مزهريات عربية نقشت عليها آيات قرآنية، وفي جانبها الأيسر كرسي خشبي عتيق مائل كأن شـخصـا قد نهض منه توا، وأمام ذلك الكرســي طاولة صغيرة فوقها بعض الكتب التي قد سحبت من مكانها في

الخزانة في وقت سابق، وإلى جانب تلك الكتب، كان هنالك ذلك الصندوق الصغير الذي كان قد أحضره من مصر، لطالما اهتم الملك بالمعرفة وقدسها، فقد أنشأ أكبر جامعة بها كل أنواع العلوم التي كانت تدرس من خيرة العلماء من كل أقطاب الأرض، ولم تكن الدراسة تقتصر على أهل المملكة فحسب، بل كان علماء الأمم الأخرى يأتون لجامعة تمبكتو ليدرسوا بها ويتبادلوا العلوم، تقدم أبو بكر نحو الطاولة وحمل الصندوق بين يديه مجددا، ليفاجئ بأن قفله قد فتح، شعر بلهفة تسري بدنه، فلطالما أراد أن يعرف ما كان يحتويه، لابد أن والده قد فتحه في ليلته الأخيرة تلك، وببطء شديد أزال القفل مجددا، وفتحه، كان يحتوي على كتاب قديم للغاية، صفحاته لم تتباعد منذ فترة طويلة، غير أنه كان قد كتب بلغة لم يرها من قبل، لم يعلم يوما أن والده يتكلم لغات لا يعرفها، كانت لغة لا تشبه أيا مما رأى قبلا، وقف معتدلا والكتاب بين يديه وعيناه ثابتتان عليه، راح الفتى يقلب صفحاته الواحدة تلو الأخرى والدهشة بادية على وجهه، وفي كل صفحة يمر بها تعتلي الكتابة صور لصرح هندسي، كانت إحدا ها تظهر جزيرة صغيرة تحتوي تماثيل لرؤوس غريبة تخرج من الأرض وكلها تتجه نحو جهة واحدة، جبل نقشت فيه مدينة تشبه مدينة الكنعانيين التي كان قد رأى رسوماتها من قبل، أهرامات مصر التي زارها منذ فترة وبعض الرسومات الأخرى لمدن لم يعرف مكانها،

أو ربما قد زالت مع الزمن، ثم أغلق الكتاب وراح يقلبه بين يديه.

بدا ثقيلا جدا لسماكة أوراقه التي كتب عليها بخط رقيق، غير أن قدمه باد من تلك الخدوش التي عليه، غلافه فارغ من كل شيء سوى كتابة تعتليه بدت كعنوان له غير أنه لم يستطع قراءة ذلك فقد كتبت بنفس الأحرف المبهمة التي كتبت بها أوراقه، حمل ذلك الكتاب من مكانه وأطبق عليه بين أصابع يده، أغلق الشرفة المطلة على البحر وتوجه نحو الباب قاصدا المغادرة، نظر إليها نظرة أخيرة كأنها جثمان والده وهو يرمي فوقه التراب، ثم أغمض عيناه لحظة أغلق فيها الباب، ومضى.

بعد عام.

- "لقد كان جدي أول من يعمر في تلك الأرض، وقد زرع فيها لسنين عدة غير أنه اضطر أن يرحل عنها فترة من الزمن "قال الرجل:

- " لكنه لم يعد إليها، مما دفع والدي لاستغلالها، وفي قانون المملكة، الأرض لمن يخدمها، أليس كذلك سيدي الملك ؟" إقال ذلك وهو ينظر نحو أبو بكر الجالس فوق عرشه.

كان يوم السبت يوما مخصصا للفصل في المنازعات التي تحدث في المملكة، ويكون الملك فيها هو الحاكم بدل القاضي وتكون الأحكام كلها في صالح الطرفين، وبذلك، يقترب الملك من قلوب شعبه، ويكتسب حبهم وثقتهم.

نظر إليهما بتمعن كأنه يتفحصهما من الداخل:

"فلتتقاسما الأرض فيما بينكما سنة كاملة، ومن يعمل فيها بجد أكثر تكون لصالحه، إن المملكة في حاجة لأولئك الذين يعملون بجهد لينتجوا من أرضها " قال أبو بكر ذلك." وأكمل مخاطبا:

"فصلت هذه القضية، ما هي القضية الموالية."

تراجع الرجلان بعد أن قدما التحية للملك، وهما يتبادلان الأنظار كأنهما يعلنان حربا، وتقدم بعدها فتى ليحتل مكانهما أمام أبو بكر، كان لباسه غريبا بعض الشيء، يضع فوق رأسه ما يشبه الوشاح الذي يرتديه النجارون في أماكن عملهم، انحنى، ثم قال:

"سيدي الملك، إني أعمل بناء سفن منذ صغري، فقد بنينا أنا ووالدي سفنا جابت البحر تحت رايات مملكتنا لسنوات عديدة، سواء تلك التي تخص الصيد أو التي تخوض حروبا في سبيل أرضنا، لكن، منذ عام ونصف تقريبا، جاء إلينا الملك بنفسه طلبا لوالدي، وقد جلس يتحدثان لساعات طويلة ذلك اليوم، طلب منه حينها أن يصنع له خمسة سفن لم يسبق أن شهدها البحر قبلا."

تحرك حينها أبو بكر من مكانه كأنه انتزع منه، ثم تابع بناء السفن:

" أوقفنا كل أعمالنا، لنتفرغ لصناعة تلك السفن الخمسة، وقد أغرقنا بأموال كثيرة طلب منا أن نأتي بها بأجود ما يمكن أن تصنع منه السفن، كما أرسل الملك إلينا ببعض المخطوطات العربية التي تخص السفن، كانت بمثابة أسرار صنع لم نكن نحن أنفسنا نعلم وجودها رغم خبرتنا الطويلة "توقف عند هذا الحد، ثم تابع حديثه بحزن ظاهر في نبرته.

" وحدث أن غادرني والدي بعد أن أنجزنا صناعة سفينتين، زارني الملك على إثرها، ووقف إلى جانبي في محنتي، وعزز إيماني بنفسي حينها، فقررت أن أكمل بمفردي صناعة ما تبقى، غير أن الأحزان منعتني من أن أكمل، وما صنعت بعدها إلا سفينة ثالثة قبل أن ... أن يتوفى الملك نفسه، وفي أيامه الأخيرة، أرسل في طلبي إلى غرفته، تحدث إليّ بحديث لم أفهم مجمله، غير أنه ترك معي رسالة لك، أخبرني أن أعطيها إياك حين أنهي صناعة تلك السفن."

وراح يستخرج رسالة أعطاها لأبي بكر الذي نهض مذهولا من مكانه، وراح يقرأ تلك الرسالة.

بناء السفن الحالم.

صعد صانع السفن على ظهر إحداها، والتي لم تلامس ثلاثتها الماء بعد، فقد وضع لمساته الأخيرة منذ يومين فقط وتوجه هذا الصباح إلى القصر، أين أعطى الملك أبا بكر تلك الرسالة، اقترب من مقدمتها متفحصا كل ما تقع عيناه عليه لعله يجد خللا ولو صغيرا، حتى وصل إلى دفة القيادة، مرر يده عليها دون أن يديرها، كان شعورا مذهلا أن تقف في هذا المكان حين تنطلق هذه السفينة، أغلق عينيه وراح يشعر بنسمة الهواء الباردة تضرب وجنتيه وتلفح شعره، خيل له أن أمواج عاتية تضرب الخشب أسفل السفينة محاولة اختراقها.

" هيهات، أنا صانع سفن ماهر، لا مثيل لي" ، قال بصوت خافت لا تسمعه أذناه حتى.

ثم فتح عيناه، ليجد أن يديه تديران الدفة، شعر حينها أن ما قاله قبل قليل، يتنافى وما يفعله الآن، فلم يسبق لصانع سفن مهما كان ماهرا أن قاد إحداها، لطالما علمه والده كل شيء عن السفن، كل صغيرة وكبيرة، كيف تقطع الأشجار من الغابة، وأيها بالضبط الصالحة لتكون سارية، وأيها نتخذ منها خشبا لا تخترقه الأمواج مهما عتت، وقد تعلم من المخطوطات العربية أيضا وصفة

سحرية تضاف إلى ذلك الخشب قبل أن يوضع في الشمس لأيام ليصبح أكثر سمكا وسلاسة، لتزيد بذلك سرعة السفينة فوق المياه، وتكون كالسهم المنطلق، لكن، لم يعلمه والده ولو مرة واحدة على الأقل كيف يدير الدفة؟ كيف يتعامل مع العواصف التي تنشأ في وسط البحر فجأة؟ والتي سمع أنها تغرق السفن دون رحمة.

ترك الدفة من بين يديه، وراح ينظر مجددا نحو تلك السفن، لطالما أحب هذا العمل مع والده، تذكر يوم صنع أول سفينة وهو بعمر الثانية عشر، حينها، ضحك والده من قوله:

" أترى يا والدي، إنها أول سفينة لي"

رد الأب قائلا:

" إنها سفينة ضخمة، تستطيع أن تحمل على ظهرها آلاف الجنود.

في الحقيقة، كانت تلك السفينة الضخمة قاربا لا يتحمل وزن رضيع على ظهره، كان أبوه يزرع فيه روحا جديدة في كل مرة يحاول فيها صنع شيء ما، كان ذلك السبب الوحيد الذي جعله يبقى في هذا العمل حتى الآن، وقد توقف كل ذلك حين بنا السفينة الثالثة لوحده بعد أن غادره والده، شعر لأول مرة حينها، أنه لم يعد

ينتمي إلى هذا المكان، وأن تلك الدفة أقرب إليه، وقف أمامها ومرر يده متحسسا إياها، ثم قال بصوت عال:

" سأبحر مع الملك، سأترك كل شيء خلفي وأرحل نحو مغامرة أشعر فيها بالانتماء."

في اليوم التالي، زار أبو بكر تلك السفن، وقد ذهل حين رأى حجمها، ظل يتفحصها لساعات كأنها قطع فنية، وقد أثنى على عمل صانع السفن الذي شعر بفخر عظيم لكن، قبل أن يخبره أنه يريد أن ينظم إلى طاقم إحدى السفن، قال الملك أنها لن تبحر إلى أي مكان وأن زمن أحلام والده قد ولى.

القصة الكاملة.

مشـــى بخطوات لا تكاد تسـمع حتى وقف إلى جانب نعمـان الـذي كـان على وشـــك أن يقطف بعض الثمـار الموجودة على شجرة التفاح الصغيرة تلك، اتضح أن تلك الثمار صعبة المنال كونها لا تزال في بدايات نضجها ولم تأخذ لونها الأحمر النهائي بعد

- " كل شيء يعود إلى الأصل في النهاية"

لم يبد على نعمان أنه قد تفاجئ من صـوت أبي بكر القادم من خلفه، حتى خيل له أنه كان في انتظاره منذ سنة.

- " إن هذا البسـتان الصـغير كان فيما مضـى كل ما أملكه، وقد اعتنيت به منذ وجودي هنا إلى جانب عائلتي، حـدث بعدهـا أن أحـب والـدك مـا كنـت أخطـب بـه في المجالس، فقرر أن يستشيرني في قضاياه، قبل أن ينقلني إلى جانبه في القصر، حينها، كلفت عائلة تسكن بالقرب بـأن تعتني بهذا المكـان، وهـا أنـا أعود إليـه بعد رحيل والدك، بعد نهاية مشواري إلى جانبه".

- " ولم تظن أن الملك الجديد لا يريد استشارتك في قضاياه؟" قال أبو بكر.

- " لو كان بوده أن يستشيرني لطلب مني ذلك قبل عام من الآن، لكنه لم يفعل، وبهذا فهو قادر على أن يتكفل بكل شيء لحاله " رد نعمان.

- " وها هو اليوم يأتي ليسألك عن شيء ما؟ "قال أبو بكر ثم أردف:

- " منذ فترة، طلب مني والدي أن أرتحل نحو مصر لأحضر له صندوقا ظننت أن به شيئا أثريا قديما، لكن، بعد وفاته بشهر كامل، دخلت غرفته لأجد أنه قد فتح قفل الصندوق الذي أتيت به واستخرج ما فيه، كان به كتاب قديم لم أفهم لغته."

توقف حينها فترة لينظر نحو نعمان، الذي بدا غير متفاجئ لكل ما كان يقوله، بل حتى أنه استمر في قطف تلك الثمار.

- " وحدث اليوم، أن وصلتني رسالة من والدي كان قد تركها مع أحد صناع السفن، يخبرني فيها أنه قد أمر بتجهيز سفن لم يسبق أن وجد مثلها قبلا، لتبحر تحت إمرتي إذا أردت، نحو تلك الوجهة التي لطالما تمنيتها، نحو الأرض الأخرى، أو أن أبقى ملكا على هذه الأرض ما تبقى لي من الحياة، تاركا لي الخيار" ، عندها، اهتز نعمان من مكانه.

وارتسمت على وجهه علامات الدهشة، ترك بعدها ما بيده ودنى نحو أبي بكر:

" هل أنت متأكد مما تقوله، أيمكنني أن أقرأ الرسالة ؟ أهي معك؟" غير مصدق ما سمعته أذناه للتو.

سلمه أبو بكر تلك الرسالة التي راح يقرأ منها

- " إلى ابني، أبو بكر، الملك.

غادر بحار في القدم هذه الأرض، ليجد أرضا جديدة، عاش مع سكانها فترة من الزمن، أحبوه حبا جما وعلمهم على إثرها من علومنا، ستقول لي أن كل صغير وكبير في المملكة يعلم هذه القصة، حتى صار البعض يهذي بها ليلا، لكن، دعني أخبرك بجزء لا تعرفه منها، قد حدث أن وجد البحار كتابا قديما للغاية حيث رحل، قيل له أنه يحتوي علوم وأسرار هذه الأرض، علوما لم يبلغها أحد حتى الساعة، غير أن الكتاب كان بلغة لم يسبق لأحد أن رأى مثلها، كما قيل له أنها اللغة الأولى التي تحدثها البشر، في بادئ الأمر، ظن أن لا طاقة له على تعلمها فالذين تحدثوها قد فارقوا الحياة وأصبحوا أساطير تروى.

حتى جاء ذلك اليوم الذي علم فيه بوجود رجل في بلاد أخرى من تلك الأرض، يعلم ما يطلب منه من علوم، وقيل له، أنه آخر من يتحدث تلك اللغة، وقبل أن يشد ذلك

البحار الرحال إليه، قرر بعض البحارة ممن جاؤوا معه أن يعودوا أدراجهم إلى ديارهم وأهلهم، فوقف البحار حينها بين أن يترك كل شيء ويسعى خلف المعرفة، أو أن يعود إلى أرضه ووطنه مع بحارته الذين لم يخيبوه يوما، ومع إصرارهم الشديد، عاد البحار خال الوفاض محضرا معه الكتاب، عازما على أن يعود إلى تلك الأرض مرة أخرى، وحدث ما حدث، ولم يعد إليها أبدا.

بما أنك تقرأ هذه الرسالة، ففي الغالب أنني قد رحلت عن هذه الدنيا وقد أكل مني الدود حتى بلغ العظم، في الغالب، أنني قد غادرت هذه الحياة، غير حامل معي ولو قطعة ذهب صغيرة من مناجم الذهب الكثيرة تلك، كما لا يحمل أحد من البشر شيئا حين يرحل، في الغالب أنك تجلس على عرش أحد أعتى الممالك في العالم، ذلك الكرسي الذي يتمناه كل من حولك ولو أنهم لا يظهرون لك ذلك، ذلك الكرسي الذي يريده الجميع باستثناء شخص واحد، وحدث أن يعتليه ذلك الشخص بالذات، أنت.

لقد تركت لك هذه الرسالة مع أحد أفضل صناع السفن في العالم وأخبرته أن يعطيها إياك حين ينتهي من عمله، لقد كلفته بمهمة بناء سفن لك، لم يسبق للعالم أن شهد مثلها، وبحلول هذه الساعة، فإن الأمواج التي تضرب أسفلها تجعلها تتوق لتبحر ولو أنني أعلم، أن كل سفن العالم لو جمعت، لما كانت تريد أن تبحر كما تفعل أنت.

وقد سبق أن منعتك من الذهاب قبلا، لكن، لن أقف بوجهك هذه المرة، لن أمنعك من أن تشد رحالك نحو الأرض الأخرى، إذا لازلت تؤمن بوجودها أصلا فقد يحدث أن يتزعزع إيماننا مرات، أعلم، لكن، كن على أشد درجات اليقين، أن الأرض الأخرى موجودة هناك في الأزرق."

توقفت ماندين عن القراءة عند هذا الحد، كانت هنالك أسئلة كثيرة تجوب عقلها، ما هي تلك اللغة التي كان يتحدث عنها البحار، هل هي نفسها تلك التي كانت قد رأتها على الجدران الداخلية للأهرامات، والتي كتبت بها الصفحة الأخيرة من هذا الكتاب؟ شعرت بأنها على وشك أن تعرف قصصا أخرى، غير قصة أبي بكر وهو يرتحل نحو القارة الأخيرة، ثم تابعت القراءة.

قال أبو بكر محدّثا نعمان أمامه، الذي تسمر من فرط دهشته مما قرأه في تلك الرسالة

ـ " ظننت أنك على علم بكل صغيرة وكبيرة، لكنني أظن أن والدي لم يخبرك بكل شيء في النهاية"

ـ " لقد قال أنه لا يريد أن يرسل أحدا، وأنه سيترك الخيار لك، إذا كنت تريد أن تقدم على هذه المغامرة كنت لترحل، أو أنك تترك حلمك الذي لطالما حلمت به و تبقى

هنا، لكنه لم يخبرني يوما بقصة تلك السفن، أو حتى أنه سيعلنك ملكا بدلا من أخيك موسى"

ـ " وما قصة الكتاب؟" قال أبوبكر

أخذ نعمان نفسا عميقا، ووضع حبة التفاح التي كانت بين يديه في الأرض، وأغلق الرسالة معيدا إياها للملك، وراح يقول:

" كما كتب في الرسالة تماما، لقد وجدنا الكتاب الذي كان قد تحدث عنه البحار في منزله، وقد قرر والدك ألا يخبر أحدا عنه، بعدها، راح يبحث عمن يعرف قراءة ما يحتويه، غير أن علماءنا قالوا إنها ليست بلغة حتى، فلا أحد منهم كان قد رأى مثيلتها من قبل، ولو حرفا واحدا قرر والدك أن يرسل الكتاب إلى مصر، لعله يجد ضالته في البلاد الوحيدة التي تحتوي علماء أكثر عددا من علمائنا، وقد أرسلك لتحضره، لكن يبدوا أن النتيجة لم تختلف، وأنه لم يبقى له إلا مكان واحد لا غير ليقرأ ذلك الكتاب، الأرض الأخرى نفسها.

إلى آرتيميس.

جلس أبو بكر ذلك المســـاء في غرفته، وهو يحمل ريشـته ليكتب مثلما فعل في الأشـهر الأخيرة، غير أنـه لم يخط على تلك الورقة أمامه حرفا واحدا بعد تلك العبارة التي كان قد كتبها في أول يوم:

" إلى آرتيميس..." .

تأبى بعدها أن تمر تلك الريشـــة على ظهر الورقة وتكتب:

" لقد توجهت لذلك العنوان الذي كنت قد أعطيتني إياه، لأسلم والدك تلك الرسالة، لكنني وجدت بدل ذلك بيتا فـارغـا لا يحتوى أحـدا، فقـد حـدث أن توفي من كنـت تراسلينه تاركا إياك في هذا العالم وحيدة ووالدتك."

زافا إليها خبر موته، غير أن الوقت قد حان ليفعل ذلك وهو الذي تأخر عنها عاما كاملا.

" لابد أنها قد ظنت أنني قد نســيتها، مثلما نســيت القافلة رسـائلها التي كانت قد أرسـلتها "قال أبو بكر في نفسه.

ثم شـرع في الكتابة بضـيق خاطر، متأكدا أنه على وشـك أن يرسـل إليها حزنا ودموعا تكفيها أشـهرا، ففي بعض الأحيان نستقبل الحزن على شكل رسائل.

تحرك يده بصعوبة وراح يخط:

" إلى آرتيميس، أكتب هذه الرسـالة، والحزن يتوغل أعماقي التي لا أعرفها، أتدرين؟ نولد ونحن نبكي، كأننا نعلم أن ما على الأرض شيئ مفرح، وأن سعادتها ليست دائمة مهما بدت كذلك، في بعض الأحيان تأتينا السـعادة على شكل أشخاص حتى ننسى أنهم ليسوا دائمين، وأنه سيأتي ذلك الوقت الذي سيرحل فيه واحد منا، وهيهات لو كنا نحن من نفعل، ما كنا حينها لنندم على أننا اتخذناهم مصـدر السـعادة الوحيد الذي نعود إليه في كل مرة لنأخذ ضـحكاتنا تلك، حينها، سـندرك أنه كان علينا أن نفرح أنفسنا بأنفسنا، أن نتخذ ذواتنا الشيء الدائم الوحيد، فلا حزن يأتي بعد أن نرحل نحن، إلى آرتيميس، أرسـل هذه الرسـالة، ومعها بعض الأطباء لعلهم يجدون علاجا لوالدتك. إلى آرتيميس التي كانت قد حدثتني عن الأمل ذات يوم قائلة أن الطريق إلى غايتنا يشـبه المشـي في الظلام الدامس نحو الشـعلة الموجودة بالقرب، ومتى ما أضـأناها لتنشـر الأنوار في أرجاء المكان، وننظر إلى الخلف لنرى ما مررنا به، حتى نجد أن الطريق كان فارغا تماما، مهيئا لنا لنمر، وأن كل تلك الصعوبات التي مررنا

بهـا في طريقتـا، لا تعـدو أن تكون تخيلات فقط، إلى آرتيميس التي كنت قد وعدتها بالعودة يوما بعد أن أحقق الغاية التي خلقت من أجلها، ولا يزال وعدي قائما، أرسل هذه الرسـالة وأنا على وشـك أن أنطلق في طريقي الذي كنت أشك في وجوده قبل يومين فقط، عكسـه هو، والذي كان ينتظرني منذ ولادتي لأعبره، نحو المجهول."

إلى لقاء آخر، إن وجد.

ـ " لقد حان الوقت إذا لتعود السلطة لمن هو أهل بها " قال أبو بكر ذلك محدثا موسى بجانبه على مائدة الطعام ذلك المساء، وأكمل قائلا:

ـ " لم أكن يوما أريد أن أصبح ملكا.»

ـ " لكن والدنا قد اختارك أنت لتكون الملك خلفه " توقف موسى لحظة بعد أن قال ذلك والدهشة تملأ وجهه، ثم تابع:

ـ " أ تدري؟ في بادئ الأمر كنت حاقدا عليك، قلت أن والدي قد أخطأ حين جعلك الملك بدلا مني، لكن، في أعماق نفسي، كنت دائما على علم أنك من تستحق الجلوس على ذلك العرش، لطالما كنت الأخ الأصغر الذي يتفوق على أخيه الأكبر في كل شيء، تعلمت من علوم جامعتنا، وتربيت على أفضل شيوخها، قاتلت في الصفوف الأولى في معارك كثيرة حين كانت حدود مملكتنا تهاجم، وأنت الذي لم تبلغ حينها العشرين بعد، وقد كنت دائما أشعر بالفخر في كل مرة أدرك أن لي أخا مثلك يا أبا بكر، كنتَ دائما ذلك الشخص الحالم، الذي ينتظر منه الجميع أن يبحر ويعود بعدها بأخبار تثلج

الصدور، كان اسمك دائما ما يذكر بعد النجاح، كشخص لم يعرف الفشل يوما، حتى أن والدي كان قد أرسلك أنت نحو مصر بدلا مني.

توقف موسى عند هذا الحد، ليعم الصمت فترة من الزمن، قاطعه أبو بكر وهو ينهض من مكانه على مائدة الطعام، ويقف إلى جانب موسى واضعا يده على كتفه.

- " لم يضع والدنا خزائن المملكة وذهبها تحت تصرفك دون سبب، لطالما كان يؤمن بك بنفس الدرجة التي آمن بي، وربما أكثر من ذلك، فقد كنت دائما الشخص المناسب لذلك المنصب الذي تقوم عليه المملكة كلها، وقد أثبت ما أقوله في عديد المرات" .

توقف أبو بكر عن الحديث، وتقدم نحو أحد الخدم، تمتم إليه ببعض الكلمات، ليخرج على إثرها الخادم ويعود بعد دقائق معدودة حاملا بين يديه تاج الملك الذي حمله أبو بكر بدوره وتقدم حتى بلغ موسى الجالس أمامه ليضع التاج فوق رأسه

- " أعلنك من الآن فصاعدا ملكا على هذه الأرض " قال

- " وما الذي ستفعله أنت يا أبا بكر؟ ما الذي يدور في رأسك؟" قال موسى وهو ينظر نحو أخيه، مدركا ما سيجيب.

- " لقد حان الوقت أخيرا، لأبحر بنفسي إلى تلك الأرض، فإما أن أبلغها أو ".وتوقف عن الحديث دون أن يكمل جملته.

لم يحاول موسى أن يقنع أخاه أن يعدل عن ذلك، رغم أنه لم يؤمن بوجود تلك الأرض يوما، لا في عهد والده الذي كان مهووسا بالحديث عنها ولا الآن، لم يحاول أن يقنع أخاه، لأنه يعلم كل العلم، أن هذه الرحلة قد كانت أكثر شيء أراده أبو بكر في الحياة، وحين يريد المرء شيئا بهذا الكم الهائل من الرغبة، لا تعدو بعدها الحياة إلا أن تكون شيئا ثانويا لا أهمية لها.

في صباح اليوم الموالي، جمع أبو بكر طاقما لتلك السفن، كان معظمه من أصحابه الذين خاضوا إلى جانبه حروبا من قبل، إضافة إلى متطوعين آخرين، كصانع السفن الذي قال إنه يريد أن يبحر أيضا، وأن صناعة السفن لم تعد تغويه كالسابق.

توقفت ماندين عن القراءة في وقت متأخر من الليل، بعد أن انتبهت أنها قد التهمت صفحات الكتاب كما لم تفعل

من قبل، فقد شدها إليه بطريقة نست نفسها، أطفأت النور المضاء، ثم خلدت للنوم.

في صـــباح اليوم الموالي تلقت رســـالة أخرى من صاحب المدونة، لكن هذه المرة، بدت أكثر غرابة من ذي قبل.

الرسالة الثانية.

إلى ماندين

"لطالما كانت الأرض دائما بالنسبة لنا لغزا محيرا نعرفه كما نعرف راحة يدنا، ففي هذا العصر نعرف كل شبر منها، وفي ذات الوقت نجهل من تاريخها الكثير، نجهل شعوبها التي مرت عليها كما نمر عليها نحن اليوم، كيف عاشت وكيف بنت كل منها حضارة نظن أنه لا مثيل لها في الأرض، لكن، لو تأملنا لحظة تلك الحضارات التي استطاعت بقاياها أن تنجو، واحدة تلوى الأخرى، لوجدنا تشابها عظيما بينها."

فلننظر في بادئ الأمر إلى الحضارة التي لا تزال تبهرنا إلى يومنا هذا ، الحضارة الفرعونية ، ونأخذ في الطرف المقابل، حضارة المايا، كانتا تبعدان عن بعضهما البعض بُعد المحيط الأطلسي بمياهه تلك، وقد حدث أن شيدتا كل منهما بنيانها في وقت لم يكن هنالك من يجرؤ على عبور ذلك المحيط، لكن، كلتاهما، الحضارة المصرية وحضارة المايا قد بنتا أهراما تتشابه في الشكل تشابها كبيرا، تسألني حينها، كيف ذلك ؟ ، أهو محض صدفة ؟، فأخبرك أن الصدف لا تحدث بهذه البساطة، لكن، ماذا لو كانت تلك الحضارتين، وأخرى، لا تعدو أن

تكون نتيجة حضـــارة واحدة لا غير، حضـــارة لم تترك خلفها أي أثر لننظر إليه، أو أنها، تركت أثرا ابتلعته الرمال ؟

قد تتساءلين الآن، ما الذي أهذي به، فكل ما يحتوي الكتاب هو قصـة الملك أبو بكر، التي كانت قد حدثت في القرن الرابع عشر بعد الميلاد، أي بعد أربع وثلاثين قرنا من أولى تلك الحضارتين، هنا، دعني أخبرك، إن الكتاب الذي بين يديك عزيزتي يحتوي أكثر مما جئت لأجله، ستأخذك قصة أبو بكر إلى ذلك الوقت الذي بدأت فيه تلك الحضارات، وبالضبط، إلى مصدرها الأول، وسيجيب- إذا أردتي أن تعرفي-على سـؤال مهم للغاية، كيف حدث أن تشابهت تلك الحضارات، في وقت لم يكن هنالك تواصل قط؟"

- " أريد أن أرتحل إلى مصر" ، كان ذلك أول ما جاب عقل ماندين حين أنهت قراءة الرسـالة التي بين يديها، تذكرت حين قالت ذلك لوالدتها وهي صغيرة بعد أن قرأت عن الحضارة المصرية، وقد كان ذلك السؤال تحديدا ما جعلها تصل لما هي عليه اليوم، شعرت بدوار في رأسها جراء كل ذلك، وفي نفس الوقت، كانت تريد وبشـدة أن تلتهم المزيد من صفحات الكتاب.

الموطن

سألت نفسي من قبل وأنا أمر على أراض كثيرة:

- " ما هو الموطن؟".

فلطالما سمعت الكثير ممن يطلق اسم الموطن على ما يحلو له، هل هو أولئك الأشخاص الذين يعبروننا كل صباح، يلقون التحية ويطرحون سؤالا واحدا لا يتغير مع مرور الأيام:

- "كيف حالك ؟" !، سؤال لا يهتمون لإجابته حتى، فلم يسبق أن أجاب أحدهم عن هذا السؤال بحق

- "كيف حالك؟.»

- " لست بخير، إني أستيقظ كل يوم بشعور واحد، أن العالم كله ضدي، أمضي يوما سيئا أتمنى أن ينتهي قبل موعده لأعود لمنزلي وأوصد الباب خلفي، متمنيا حين أستيقظ في الصباح الموالي، لأجد أن العالم قد ذهب للجحيم."

يسألون ذلك السؤال، ثم يبتسمون ويمضون في طريقهم، أم أن الموطن هو تلك الأرض الجرداء التي نذب عليها؟ نحب تفاصيلها، هضابها، سهولها، ورياح

جبالها، أماكن معينة لنا فيها قصص مضت، ربما بيت مهجور كنا نلعب قربه في الصغر، ولو وقفنا عنده مجددا ترانا نبتسم ونستحضر ما مضى مرة أخرى، نعاين طوبه الذي تآكل لعلنا نجد رسما أو اسما كنا قد نقشناه، في حين أن ذلك البيت، تلك الأرض، لا تبادلنا أي شعور، فهي التي لا تتعلق بأحد، مدركة أنها باقية، أما نحن فإننا سنرحل في وقت ما، فقد احتوت بعضنا في القبور مسبقا، أم أن الموطن هو كل ذلك ؟، لم أعرف حينها إجابة لذلك السؤال "، ما هو الموطن تحديدا؟" .

أما الآن، وأنا أرى آخر الأراضي تختفي خلف مياه هذا البحر فإني أدرك جازما، أن الموطن لم يكن يوما شيئا محددا، إنما هو ذلك الذي نعود إليه حين نكون في حاجة ماسة لشيء نرتكز عليه، أيا يكن، شخصا كان أو أرضا."

جاب ذلك عقل أبي بكر وهو يقف في مؤخرة إحدى السفن الثلاث المنطلقة في عرض البحر، ينظر إلى آخر ما تستطيع عيناه أن تبصره من أراض، والتي تحمل على ظهرها أولئك الأشخاص الذين كانوا دائما سندا له، تذكر أخاه موسى وأخته الصغرى أسمهان، تذكر آرتيميس ووعده لها، أخذ نفسا عميقا ثم استدار ومشى حتى بلغ مقدمة السفينة.

راح ينظر نحو ذلك البحر الذي لا ترى نهاية له من أمامه، بدا موحشـــا تماما ينذر بأوقات حالكة آتية لا محالة، تذكر فجأة سؤال الرجل في المعبد:

" ما الذي تبحث عنه في هذه الكتب التي تقرأها ؟ "!، والذي لم يعرف إجابة له ذلك الوقت.

أما الآن، وهو منطلق في اتجاه الأرض الأخرى، فهو يدرك تماما ما كان يبحث عنه، كان دائما يقرأ لعله يصادف قصته في إحدى تلك الكتب، شخصا يدعى أبوبكر يترك حكم مملكة كاملة، ويبحر نحو المجهول ليجد أرضا لم يكن يعلم بوجودها أحد، عاد بعدها إلى غرفته في السـفينة تاركا الدفة لصـانع السـفن، والذي بدى أكثر شـخص يتملكه الحماس لهذه الرحلة وهو يرى السـفينة التي بناها بنفسه تصارع الموج.

ما الذي نجهله؟

كانت ماندين جالسة في حديقة البيت تقرأ حين سمعت صــوت قرع الباب، لتجد آدم خلفه بعد أن فتحته، راحت بعدها تخبره عما حدث معها بعد أن عادا للجلوس في الحديقة، وراح هو يعتذر عن الغياب، قائلا إنه كان عليه أن يقوم ببعض الأعمال

ـ " لا بأس، فكل ما قمت به هو زيارة الدكتور مجددا، اتجهت على إثرها إلى الأهرام ولم أغادر البيت بعدها وقررت أن أنهي الكتاب."

ـ " وهل أنهيته حقا ؟" إقال آدم وهو يرمق الكتاب أمامه على الطاولة بنظرة

ـ " ليس بعد، أتدري؟ في كل مرة أقرأ فيها بعض الصـفحات، أجد نفسـي أمام كم هائل من الأسـئلة التي لا أجد إجابات لها، لو كان حقا بهذه السنوات من القدم، وأن قصته حقيقية، لكانت صفحاته تساوي ذهبا"

ثم تـابعت حديثها وهي تقص عليـه مـا قرأتـه حتى السـاعة، وقد شـعر بحيرة شـديدة عندما أخبرته بأمر الرسالة

ـ " ألا تظنين أنه قد يكون شخصا نعرفه؟" قال آدم

ـ " ومن قد يكون؟ إننا لا نعرف أي شـخص هنا له علاقة بالقصة؟"

قال آدم وهو يهمس:

ـ " ماذا عن دكتور الجامعة ؟!"

ـ "لا، لا أعتقد ذلك، لقد أراد أن يحصل على الكتاب في آخر مرة التقيت به، كما يبدوا أنه لا يعرف شيئا عني "

ـ " صحيح، لقد اخترته بطريقة عشوائية من أقرب جامعة هنا".

ـ " من يكون ذلك الشخص إذا ؟!"

افترقا على ذلك السؤال.

أهي موجودة حقا؟

"تذكّر دائما أن الأجنحة وحدها لن تحلق عاليا، أن الطريق التي لا يمر بها أحد يكسوه الأخضر من جديد، وأن السفن لن تعبر البحر و دفتها فارغة الأيدي.

سبعة وخمسون يوما قد مضت على انطلاقنا، أما الساعة فلست أدري، فلم تعد الساعات مهمة، الوقت هنا نهار وليل فحسب يتوسطها غروب وشروق، ووحدهما من يبثان فينا شعورا بالحياة، وغير ذلك، فإن النهار يمر علينا ونحن نتبادل المراقبة فيما بيننا لعلنا نمر بجزيرة صغيرة نأوي إليها فترة من الزمن، نشعر بذلك الثبات تحت أرجلنا ولو لدقائق، أو لعلنا نصل للأرض الخيالية تلك، كنا نجتمع للعشاء على الأنوار الأخيرة للشمس، نأكل ونضحك سوية ويواسي بعضنا بعضا ثم يقص لنا أحد البحارة قصة من القصص التي لم يسأل أحد نفسه أهي حقيقة أم خيال؟

كل ما يهم هو أنها تخفف عنا وتنسينا الأمواج العاتية التي لا تكف عن ضرب أسفل السفينة، وكذا تخفف شوقنا لأهالينا الذين لا نعلم كيف حالهم اللحظة، وتنسينا كذلك الأرض غير الموجودة، لابد أن البحر يمتد للأبد، سألت نفسي اليوم بعد أن اقترب الشهران منذ انطلاقنا:

" كيف أقنعت نفسي أن أرحل عن تجارتي التي بدأت تظهر نتائجها؟ تاركا خلفي كل ما عملت عليه لسنوات؟ قائلا أنه قد حان الوقت لأحقق شيئا لم يسبق لأحد أن حققه، وأن أخط اسمي في سجلات التاريخ بحبر من ذهب، وأن يتذكرني الجميع لا أن يروني نكرة مثلما كانوا يفعلون قبلا، فما الإنسان العادي في نظري إلا رقم آخر في تعداد سكان العالم، حتى يكتب عنه التاريخ ويذكره بعدها للأبد، فيصبح بذلك أحد العظماء بعد أن كان قبل أيام معدودة من فعلته تلك، شخصا نكرة، مثلما كنت قبلا، لكنني، على عكس معظم البشر، قررت أن أخاطر بكل شيء من أجل أن أغير ذلك، وقبل أيام قليلة فقط، كنت أرى نفسي في الطريق الصحيح إلى ذلك، لكن مؤخرا، بدأ ذلك السؤال يتغلغل في رأسي شيئا فشيئا حتى استعمره، أهي حقا موجودة ؟" !

كان هذا الحديث يراود أحد البحارة الذين يركبون إحدى تلك السفن الثلاث، والذين كانوا قد فقدوا الأمل في العثور على تلك الأرض وما زاد الطين بلة، هو أنه في تلك الليلة بالضبط، امتلأت السماء بغيم أسود أخفى النجوم من فوقه، وهبت رياح شديدة جعلت الأمواج ترتفع عاليا، حدثت على إثرها عاصفة هوجاء لم يسبق أن رؤوا مثلها، أدت إلى فقدانهم لإحدى السفن.

أبوبكر

قبل أن يبدأ بصناعة السفن، كان والدي حينها يعمل بالنجارة، وقد أخذني في إحدى المرات لورشة عمله الصغيرة في حينا قائلا أنه علي أن أتعلم النجارة، لم أفلح في بادئ الأمر في استخراج أي قطعة فنية من الخشب في الأسابيع الأولى، فقد كنت أركز حينها على صغر تلك الورشة فقط ولم ألق بالا للقطعة الخشبية أمامي التي رحت أتخذها مكانا أرمي به غضبي بدل أن تكون مكانا لأصقل مهاراتي في النجارة، وبعد شهر من الفشل في تشكيل ولو قطعة واحدة قررت أن أتفق مع تلك الورشة وأعلن وإياها نهاية الحرب ونعقد السلام للأبد، فصرفت نظري تماما عن صغرها وضيقها وأزلت كل شعور كان بداخلي اتجاهها، فلم يمضي حينها أسبوع واحد إلا وأحرزت تقدما في تلك القطعة، وأخرجت من غصن الشجرة قطعة فنية.

حينها أدركت أن هناك أشياءً أخرى غير البشر يجب أن نتصالح معهم، كانت تلك الورشة إحداها آنذاك، أما الآن، فقد حان الوقت أن أتصالح وهذه السفينة، منذ أن بدأت الأمواج تعلوا أدركت أنه يجب أن أخوض معها حديثا هي الأخرى تماما كما فعلت مع الورشة، كانت السفينة غير ثابتة، حالة رهيبة من عدم الاتزان فلم

يغمض لي جفن لأنام منذ أيام، حملت نفسي للخارج لأستنشق بعضا من الهواء، كان الموج يرفع السفينة ببطء من الأمام ليمر من تحتها فتميل السفينة للأمام ثم للخلف وهكذا دواليك، ثم تضرب تلك الأمواج جوانب السفينة بقوة فتسمع ارتطامات حادة توقظ الجميع.

رغم أن المطر لم يهطل بعد إلا أن الضباب يلف السفينة ويمنع رؤية أي شيء أبعد من خمسة أقدام، نزلت السلالم وتوجهت نحو المقدمة بصعوبة، كان منظرا مرعبا، تشعر برهبة تجتاح بدنك حين تدرك أننا نبعد عن اليابسة آلاف الأميال وليس بقربنا أحد غير البحر، حين ترى ذلك المنظر، السماء سوداء قاتمة لا تر منها شيئا والقمر لا يظهر فقد كتمت صوته السحب وصوت الأمواج تخبرك أنك على أرضها.

إن تحتك غيابات الجب، ولا صوت يعلوا فوق صوتها، كل ذلك يبعث فيك شعورا أقرب للخوف منه للفزع، يجعلك ذلك تدرك مدى صغر حجمك وكم هي ضئيلة قوتك تلك التي تظنها عظيمة، وقد حدث أن أضعنا منذ شهر إحدى السفن التي كان على ظهرها عشرون بحاراً.

عمّ الحزن بعدها وجوه الجميع، غير أننا لم نستطع التوقف للبحث عنها ذلك لأن العواصف لا تقبل أن

يثبت شيئ فوق البحر في حضرتها، وإلا كانت لتغرقه، ثم فجأة، لمحت طيف شـخص بالقرب مني كنت قد أغفلته، وبعد أن دققت النظر فيه لثوان اتضح أنه أبو بكر بنفسه يقف متسـمرا ويتجه بنظره صـوب الموج هو الآخر، يشاهد منظر السفينة وهي تخترق البحر، تقدمت خطوات حتى أحس بوجودي، نظر إليّ كأنه يرى شـيطانا مارد، فبادرت بالحديث:

" ألم تنم بعد يا سـيدي؟ الجو بارد للغاية هنا في الخارج"

نظر نحوي نظرة خاطفة ثم عاد ليتابع مراقبة تلك الأمواج وقال

- " لم يغمض لي جفن بعد، صوت الأمواج لم تسمح للنوم أن يتسـلل لفراشـي " عم الصـمت لحظات، ثم تابع الحديث حين ظننت أنه ليس هنالك ما يقال

- " إنني أدرك الآن مـا مر عليـه والـدي في أيـامـه الأخيرة حين كان ينتظر السفن التي أرسلها في البحر ولم تعد، إنه يشـبه أن يغرس أحدهم في قلبك عودا وينتزعه ثم يغرسـه مجددا ويسـتمر في ذلك إلى أن يهلكه التعب وينام كلاكما، لتسـتيقظا باكرا في اليوم الموالي ليفعل الشـيء نفسـه بقلبك دون توقف، لا أعلم ما قد حدث لهم؟

ما الذي يمرون به الآن؟ هل ابتلعتهم المياه؟ أم أنهم يبحرون مثلما نفعل نحن؟"

لزمت حينها الصمت لأني أدرك أنه في هذه اللحظة بالضبط، ليس هنالك أي حديث في العالم يخفف عنه وطأة ما يجوب خاطره، كل ما كان في حاجة إليه هو شخص يسمع حديثه ويبتلع معه قطرة من ماء بحره، يخفف بها عنه، ففي بعض الأحيان قد تشعر أن بك رغبة جامحة بحديث طويل يدوم ساعات غير أنك في الوقت ذاته لا تقوى على نطق كلمة من ثلاثة أحرف، وفي أوقات أخرى، تظن أنه لا طاقة لك بالحديث، غير أنه وبعد أول كلمة تنبس بها شفتاك، لا تستطيع أن تتوقف حتى تخرج كل شيء، وهذا بالضبط ما كان يحدث مع أبو بكر، سألني

ـ " أتشعر أنك ضعيف لا حول لك ولا قوة الآن ؟ " !

ظننت للحظة أنه يقرأ أفكاري التي كانت قد جابت عقلي منذ لحظات أو أن أجسادنا مرتبطة بطريقة ما، ثم تابع:

" ولد الإنسان ضعيفا غير أنه أوهم نفسه أن له القوة، بنى كل شيء بما يتوافق مع حجمه ليتحكم به، متناسيا تلك الأشياء الخارجة عن نطاقه، تلك الأشياء الضخمة، تماما كالسماء وهذا البحر أمامنا، كم أبدو

صغيرا حين أنظر لهذين الشيئين" ، هززت حينها رأسي موافقا.

غادر كل واحد الآخر بعد دقائق، لم أره منذ ذلك الحين فقد التزم غرفته، غير أنني في كل ليلة، كنت أخرج لأقف أمام الأمواج، أنظر نحو البحر، أحاول أن أتصالح مع السفينة كما فعلت سابقا مع الورشة، غير أنها تأبى الحديث.

أبوبكر في غرفته

ـ " أسبق أن اشتد الأرق عليك ذات ليلة حتى ظننت أنك مفارق للحياة؟"

ارتفعت سرعة دقات قلبك ثم انخفضت وكادت أن تتوقف، ومن شدتها أن التقت نبضتان وتركتا فراغا شاسعا بينهما وبين النبضة الموالية التي أتت متخلفة، نهضت على إثر ذلك مفجوعا واضعا يدك على قلبك لتتحسس دقاته، ضانا أنها ليلتك الأخيرة حقا هذه المرة، وتذكرت حينها كل خطاياك التي اقترفتها وأنك لست على استعداد لملاقاة خالقك، أخذت بعض الماء الذي أزال عنك ذلك الأرق بعد دقائق، فأدركت أنها ليست النهاية كما ظننت، وأن بوسعك تغيير كل سيئة اقترفتها في حياتك، ربما تلك الصلة التي قطعتها مع خالقك، أو مع والداك، ربما ذلك الصديق الذي لم يعد بذلك القرب ولست تعلم أي منكما قد خطى مبتعدا عن الآخر، أو ربما لم تعد متصالحا مع ذاتك، ربما لم تعد قريبا من نفسك حتى، جسدك هنا، وروحك تسكن أقطاب السماء.

ثم وعدت نفسك أن تنهض صباحا بشخص لا يخطئ، بشخص مثالي، شخص يشبه في أفعاله الملائكة، وفي

الصـــباح الباكر لم تنهض حتى لأداء فريضـــة الفجر واكتفيت بقول إن الأسود لن يصبح أبيضا أبدا."

في الكون، الليل لا يدوم، بل يحتل أطرافه لساعات ثم ينقشـــع ليحل النور من جديد ويحدث هذا مرارا وتكرارا يوما بعد يوم دون توقف، يحدث في الكون كما يحدث في داخلنا، تغرق أطرافنا في الظلام من حين لآخر وكل ما علينا فعله هو أن ننجذب قليلا نحو النور فكن على يقين أن بداخلك كونا ينتظر شعاع نور طفيف لتكتشفه" .

انتهى أبو بكر من كتابة هذا على صفحة من صفحات مذكرته التي لم يكتب بها منذ مدة طويلة، كان قد عكف في غرفته منذ أن انطلقت الرحلة، مرت الأيام سريعة راح يقرأ فيها من الكتب التي كان قد جلبها معه، لكن الوحدة ســيئة حتى مع الكتب فقد ظل يهذي ليلا، نهض مرة من مكانه وهو يرتجف و يتحدث بكلمات لم يفهمها، وفي مرة من المرات أيقظه صانع السفن قائلا أنه قد سمع صراخه فهرع إليه ضـانا أن مكروها قد أصـابه، فكر أبو بكر فيما قد كتبه في مذكرته، شـعر أن ما يكتبه في كل مرة ما هو إلا شـيء مر به سـابقا، حين يجد وقتا ليكتب شـيئا، يبدأ دائما بأحرف صـــامتة لا تكاد تشـــكل جملا، وما هي إلا لحظات، حتى ينسـاب القلم فوق تلك الأوراق ليخط وحده صـفحات طويلة لا يعرف ما فيها حتى يقرأها من جديد،

كأن روحه تتكلم إليه عبر الكتابة، لكن تلك لم تكن المرة الأولى التي يستيقظ فيها مفجوعا.

حدث أن هرول إلى الخارج مرات عديدة حين سمع صوتا ينادي:

" لقد وصلنا إلى اليابسة" ، لكنه في كل مرة يخرج فيها، لا يجد شيئا.

ليظهر أن المراقب قد رأى سرابا في البحر، حدث ذلك مع كل مراقب بعدها حتى ما عاد يخرج عند سماع أصواتهم، مدركا أن الأرض الأخرى، لا تعدو أن تكون خيالا، وأنه فوق هذه السفينة، فوق هذا البحر الضخم، يتجه نحو اللاشيء، حتى جاء ذلك اليوم، الذي صاح فيه صانع السفن، هنالك جزيرة أمامنا.

الأرض الأخرى

كان المنظر مهيبا، لونا أزرق يعود لبحر مترامي الأطراف، أخضر لتلك الأشجار الكثيفة التي لا ترى نهايتها وأصفر للرمال التي كانت بين هذا وذاك، وسفينتان تدفعهما ببطء تلك الرياح القليلة ذلك اليوم نحو الشاطئ، وقف الفتى في المقدمة ممسكا السارية بقبضته وقلبه يكاد يخرج من قفص صدره غير مصدق ما يراه أمامه، أهذا هو الشعور الذي يتملك من يحقق حلمه ؟ ! شعور يجمع كل شيء معا، ويخلق منه شيئا جديدا ينتاب المرء.

خرج البحارة الواحد تلو الآخر من حجراتهم بعد سماعهم صرخة صانع السفن، وفي كل مرة يخرج فيها أحدهم كانت ملامح وجهه تتحول من الكآبة واليأس نحو الدهشة والفرح، يقلبون عيونهم في ذلك المنظر البهيج الذي افتقدوه، ألوان جديدة لم يروها لأشهر، سعادة اجتاحت قلوب كل البحارة على السفينتان بعد أن اختفت الدهشة من على وجوههم وأيقنوا أخيرا أن ما آمنوا به حقيقة وأنهم أوائل من سافروا على ظهر هذا الأزرق نحو الأرض الأخرى.

انتابهم فخر عظيم بأنفسهم آملين لو يزف البحر هذا الخبر للضفة الأخرى، إلى أهاليهم، أن يشعر شعبهم بالفخر أيضا مثلما يشعرون هم الآن، أن يعلموا أن أولئك الذين أسموهم مجانين حين غادروهم كانوا أعقل الناس وأشجعهم، فلطالما سمي العظماء مجانين حتى أثبتوا العكس، صرخ البعض لقد نجونا، وصاح آخر قائلا:

" المجد لك أبا بكر، المجد لك. "

ـ " أهذه هي الأرض التي تحدث عنها البحار ؟ ! "سأل نفسه أبو بكر غير مصدق ما تراه عيناه.

فسيكتب التاريخ حين يعود أنه وجد أرضا جديدة لم يسبق لأحد أن عرفها حق المعرفة وستحدث عاصفة في العلوم تحرق على إثرها كتبا كثيرة لا تضم هذه الأرض هنا أمامه، تلك الخرائط التي ترسم العالم، الدراسات التي تقدم في الجامعات، وغير ذلك الكثير، ثم فجأة نبست شفاهه.

ـ " ماذا لو كان هنالك بشر على هذه الأرض ؟!"

ـ " لقد وصلنا أخيرا يا سيدي، لقد قطعنا البحر الكبير "قال بناء السفن مقاطعا حبل أفكاره ثم أتبع قوله:

ـ " لقد فعلناها، لقد وصلنا "

رســـت الســـفينتين بعيدا ونزلت أربع قوارب تحمل رجالا قطعوا محيطا كاملا إلى يابسـة في أطراف الأرض، جدفت تلك قوارب حتى رست في الرمال، كان الشـاطئ لا يشـــبه أيا مما رأوه قبلا، فمائه لا يكاد يخفي شـــيئا من تحته، حتى أنهم كانوا يرون السـمك القريب وهو يجدف مبتعدا عن قواربهم، وفور أن وقف أولهم على اليابســة ومشـــى خطواته الأولى، حتى خر ســاقطا على الأرض، كأنه طفل في بدايات عمره يحاول أن يتعلم المشـــي، ما كادت أجسادهم تصدق أن لا ماء تحتهم أخيرا، وبالقرب، كانت هنالك سـاقية تنتهي مياهها إلى البحر، راح البعض يغتســـلون فيها ويمرحون بأعلى صـــوتهم، أما البعض الآخر فأخذوا ينثرون رمال الشاطئ في السماء ليصدقوا أنهم بلغوا الأرض حقا، أما أبو بكر فتقدم نحو أطراف الغابة، وراح ينظر إلى تلك الأشـــجار التي لم يرى مثل ضـخامتها قبلا، كانت بطول شـاهق ذات أوراق واسـعة تسمع حسيسـها من بعيد، وكذا أصوات الطيور المغردة وهي تنتقل بين أغصانها العالية، وفي وسط كل هذا، لمح فتاة تنظر صـوب عينيه خلف شـجرة من تلك الأشـجار، نظرة تخترقه حتى الداخل، وما هي إلا لحظة حتى اختفت.

"الجزيرة تحتوي بشرا " قال أبوبكر.

الحالم مجددا

الشمس قد مالت عن منتصف السماء الآن، وكلنا في انتظار أبو بكر ليعود، لقد اختفى منذ فترة بعد أن قال إنه قد رأى فتاة صغيرة بين الأشجار وقرر أن يذهب خلفها فأردت مرافقته غير أنه أبى ذلك وقال أنه يجب علي أن أبقى مع المجموعة حتى يعود.

كان البحارة يجلسون في مجموعات على الشاطئ يتبادلون أطراف الحديث، بعضهم يتحدث عن عودته للمملكة وكيف أنه سيقص هذه الرحلة لمن يعرفهم، وراح البعض الآخر يتحدث عن بناء سفن أضخم للتنقل بسرعة و إمكانية ضم هذه الأراضي لأرضنا، لكن كل ما جاب عقلي حينها هو ما تخفيه عنا هذه الأرض، حين تنظر إليها للوهلة الأولى، يخيل لك أن غشاء عيناك قد أزيل وأنك تبصر الجنة، الأشجار تبلغ في طولها عنان السماء بل وتختلف عن أي أشجار رأيتها قبلا، والنباتات من تحتها كثيفة تكاد تمنعك من العبور، شيء لم يسبق لعينيك أن رأته قبلا، كأنها أرض عذراء لم تلمس من قبل، بل ولم ينزع عنها وشاحها حتى يومنا هذا.

أصحيح أن على هذه الجزيرة بشر ؟ إكان ذلك السؤال لا يفارق مخيلتي، كيف لم يسافروا إلينا ولم يبنوا

سفنا ويقطعوا البحر مثلما فعلنا نحن ؟ !أكانوا يعتقدون أن الأزرق يمتد للأبد مثلما كنا نظن ؟!، حين قررت أن أسافر مع أبو بكر وأترك النجارة لشيء ما في نفس يعقوب، لم أكن أدرك حتما أننا سنصل لشيء في النهاية، وأننا سنكون أوائل من يضع أقدامهم هنا، كل ما كنت أعرفه هو أنني سألبي تلك الرغبة الملحة بداخلي، الرغبة في أن أركب السفينة التي بنيتها بنفسي في عرض البحر، أن أراها تخترق الأمواج، الرغبة في معرفة أي ألوان تكمن خلف كل هذا الأزرق، ومن أين يأتي البحر بتلك الأصوات التي يحدثها حين تصدم أمواجه بصخور الشاطئ؟ كنت دائما أؤمن أن أوائل البشر قد كانوا مستكشفين ثم، ولسبب ما توقف العالم عن ولادتهم، وبدل ذلك صار الجميع مكتف بالعيش حياة عادية خالية من البحث عما هو مجهول، حياة اكتفاء بمعرفة ما هو معلوم فقط، أسألت نفسك يوما.

- "ما الذي تخفيه السماء عنا ؟"!.

في بادئ الأمر سيبدو سؤالا مألوفا لا يحمل شيئا جديدا يستحق عناء التفكير، وستجيبني أنها تحتوي النجوم، القمر، الشمس وأشياء نجهلها، ثم تعود لبيتك وتنسى هذا السؤال تماما ولن تبحث عن تلك الأشياء التي نجهلها، لكن، هو سؤال عظيم لو تدبرنا فيه لحظة.

- " ما الذي تخفيه عنا الســـماء، ما الذي يكمن خلفها؟!"

وأظن أن أول بشر على الأرض سأل نفسه الكثير من هذه الأسئلة:

- " ما الذي يخفيه العالم عني؟" قال.

ثم ما لبث أن راح يبحث عن إجابات لأســئلته لكن العمر انتهى دون أن يكتشف الشيء الكثير، عرف بعدها ابنه قصة أبيه وراح يتابع البحث هو الآخر وهكذا مع من أتى خلفه حتى اكتشفنا ما نعرفه اليوم من أراض، وهذا ما ولد به أبو بكر، ولد ليعرف ما لم يعرفه أحد قبله، ولد بشغف في حين أن الكثير من البشر قد ولدوا من دونه، ولدوا لحياة" عادية " خالية من كل شيء غير ذلك، ولو سألتهم عما يبحثون عنه في هذا العالم؟ ما الذي يصبون إليه؟ لقالوا لك أنهم" يعيشـــون "وهذا ما ترتكز عليه الحياة، كأن العيش شيئا يفتخر به؟

ولد الذين بدون شغف ليتعلموا ما اكتشفه من بهم شغف ولا يزيدون عن ذلك شيئا ولو راودتهم أسئلة عن مالا يعرفونه يقولون:

- " هناك أشياء لا نستطيع الوصول إليها، نحن البشر محدودوا القدرة " خالقين لأنفسهم حدودا غير

موجودة وضعوها بأنفسهم، راسمين بها خطوطا وهمية لا يتعدونها، قل في نفسك:

- " ولو انتهت حدود الأرض لاتجهت بعيني صوب السماء " كن شغوفا وأضف شيئا جديدا لهذا العالم البائس وأترك بصمة يبني شخصا آخرا من بعدك عليها ويتخذها أرضا له، هذا ما جعلني أبني تلك السفن وأرتحل جنبا إلى جنب مع أبي بكر نحو هذه الأرض.

- " هيا بنا، لقد وجدت شيئا، اتبعوني " كان ذلك صوت أبي بكر، قال ذلك واختفى مجددا في الغابة، راح الجميع ينظر إلى بعضهم البعض لحظة قبل أن يقفوا واحدا تلوى الآخر ويمضوا خلفه.

كان مسرعا، خطواته متباعدة يكاد على إثرها أن يركض بين تلك الحشائش الكثيفة، كان الجميع من خلفه يهرول في محاولة منهم ألا يفقدوا أثره، وبعد لحظات توقف أبو بكر عن المشي وثبت في مكانه، راح الجميع يصل من خلفه ليجدوا أنفسهم أمام كوخ صغير في وسط تلك الغابة الكثيفة، وكل ما شد انتباه البحارة الوافدين على الجزيرة هو ذلك العجوز الذي يقف أمام الكوخ يتفحصهم واحدا تلوى الآخر وفتاة صغيرة تختبئ من خلفه، ترشقهم هي الأخرى بنظرات خوف.

كان الرجل ذا بشـــرة تكاد تظهر ما تحتها من شدة بياضـها، وقد كانت تلك التجاعيد البادية على وجهه تخبر أنه قد تعدى عقده الخامس، يرتدي جزءً من قماش سيء الصنع، أما الفتاة فقد بدت أكثر دفئا لارتدائها صوفا كثيفـا يقيهـا من البرد، غير أن علامـات الرعـب كـانـت ظاهرة في عينيها، ربما هي على وشـك أن تذرف دمعا، ممسكة بيديها قدم المسن بشدة.

ـ " لقد تكلمت معهم، إنهما من سكان الجزيرة " قال أبو بكر ذلك وتقدم خطوات نحو الرجل الذي ظهر أكثر ارتياحا له، لكنه ظل يحدق لبقية البحارة بنظرات يشوبها الخوف.

ـ " تكلمت معهم؟ كيف ذلك؟ أتتكلم لغتهم؟" سأل أحد البحارة

ـ " بل قل إنهم يتكلمون لغتنا، أليس كذلك يا سيدي؟ "رد أبو بكر محدثا المسن بجانب الكوخ والذي هز رأسه موافقا

ـ "كيف يمكن لبشـــر يبعدون عنا بعد الســماء عن الأرض، أن يـتـكـلـمـوا لـغـتـنـا؟". ســـأل الـبـحـارة أنفسهم.

سفينة من بين ثلاث

"تذكر دائما، أن الطائر المسكين الذي سقطت من جناحه ريشة قد حلق متخطيا بين أغصان الأشجار ظانا أنه لن يرى السحب من جديد، حتى أتى ذلك اليوم الذي نهض فيه على آلام ظهور ريشة جديدة، حلق بعدها عاليا بين تلك الجبال كما لم يفعل من قبل.

قد تظن أنك غير قابل للإصلاح، أن قطعك المترامية هنا وهناك لن تجمع من جديد لتشكلك مرة أخرى، وقد تجزم يقينا حينها، أنك ستظل على هذه الحال ما حييت، حتى يأتي ذلك الصباح الذي تستيقظ فيه لتجد نفسك قطعة واحدة مرة أخرى، كأنه لم يمسك ضرا، تدرك حينها أننا قابلون للإصلاح، وأن ذلك الشعور هو فقدان لذواتنا فترة وجيزة قبل أن نجد أنفسنا مرة أخرى، لكن، هذه المرة، حين نجد أنفسنا بعد فقدانها، نكون أكثر فهما لها من ذي قبل.

كان قد مر عام ونصف منذ تلك الرحلة التي فقدت فيها" ساتل"، في البداية حين لم يعد" ساتل "كنت أنسل من حراسة القصر وأنزل قرب الشاطئ لأنتظر هناك على أمل أن يظهر شيء مع تلك الأمواج، في بادئ الأمر كنت أمضي ساعات النهار جلها هناك، غير أنه مع مرور

الأيام، بدأت أشعر أن كرهي للبحر يزيد شيئا فشيئا، فراحت تلك الساعات التي كنت أقضيها هناك تنقص شيئا فشيئا ،حتى أتى ذلك اليوم الذي عرفت فيه أنني أمقت البحر حدا لا يطاق، توقفت بعدها عن الذهاب للبحر وعكفت بغرفتي، مررت حينها بأيام سوداء ظننت أنه لا يمكنني العيش بعدها كسابق عهدي، غير أن الزمن الطويل والذاكرة المتناسية قد يحدثان مالا يمكن تخيله، لأنهض ذات يوم، وأقرر أن أبدأ من جديد لأن الحزن لا يعيد شيئا في النهاية.

وقد ظننت حينها ألا شيء قد يعيد ما مررت به، وأن ذلك هو أقصى درجات عذاب الأرض، غير أن الحياة قد تفاجئك بأن لك في جعبتها مالا يخطر على البال، فقد قرر أخي أبو بكر فجأة أن يبحر هو الآخر، تاركا خلفه العرش لموسى، وقد حاورته حين علمت ذلك كما فعلت مع ساتل من قبل، لعله يعدل عن ذلك، معلنة الحرب على ذلك البحر الذي أخذ زوجي من قبل، وها هو اليوم يحاول أن يفعل المثل بأخي، حدثته، لكن هيهات، قائلا بأن هذه الرحلة كل ما كان يحلم بها.

ـ " لقد رأيت ما حدث لهم يا أبا بكر، لقد أبحروا دون توقف ولم يعودوا بعدها، إن تلك القصة لا تعدو أن تكون خيالا لا غير، أرجوك، لا تذهب " وعيناي تملؤها الدموع التي لا أعلم كم بقي منها.

ـ " لكن هذه المرة مختلفة عزيزتي، لا تقلقي علي، سأعود لا محالة، أعدك " رد أبو بكر.

كان دائما أبو بكر الشخص المثالي في نظري، الشخص الذي إذا وعد أوفى، وقد رحت أقنع نفسي مرة أخرى بعد رحيله أن هذه المرة مختلفة، وأن أبو بكر سيعود لا محالة، محملة نفسي رحلة أعرف طريقها تمام المعرفة ، تسللت بين الحراس وقابلت البحر مجددا، قبل أن أحقد عليه حين طال غياب السفن الثلاثة تلك، مقتّه بعدها كما لم أفعل من قبل، فما عدت أستطيع أن أنظر إليه، أو أسمع صوت صدام موجه في الصخور القريبة، وحدث فجأة بعدها أن عادت سفينة من تلك السفن الثلاث، قال من عليها أن عاصفة هوجاء قد ابتلعت سفينتين، والتي كان أبو بكر على إحداها، استيقظت بعدها مرات ومرات، منتظرة أن يحدث ذلك من جديد، أن أنهض وقد أصلحت قطعي كما حدث من قبل، لكن هذه المرة، لم يعد هنالك ما يمكن إصلاحه بي. "

كتبتْ أسمهان هذا على ورقة، لتضعها فوق طاولة غرفتها قرب باقة الزهور التي كانت قد قطفتها هذا الصباح، صعدت الكرسي الخشبي أمامها، وتدلت من المشنقة.

هـذه الأرض

في السـاعات المواليـة، راح بعض البحارة يسـاعدون العجوز في صـيد السـمك، فقد ألح أن يكون عشـاء هذه الليلة عنده، كان العجوز يسـتخدم أوراق أشـجار صـنع منها ما يشـبه الشـباك، ليضـعها تحت مياه الشـاطئ في مسـاحة كبيرة، يثبت بعدها دون حراك و ينتظر بصـبر حتى تقترب الأسـماك منها، ولأنها بنفس لون الطحالب المنتشـرة هنا وهناك فإن السـمك يمر قربها بحثا عن قضمة، وفور إدراكه أنها ليست بطحالب يحاول أن يرحل بعيدا فيكون الوقت قد تأخر، عندها، يسـحب العجوز والبحارة معا الشـباك من تحت مياه البحر، فتعلق بعض الأسـماك الكبيرة، وتنجح الصـغيرة منها في الإفلات لتعيش مرة أخرى.

كان أبو بكر يراقب ذلك من الشـاطئ، لقد رأى هذه الطريقة في الصـيد من قبل، غير أن الزمن قد ولى عليها ولم يعد الصيادون يستخدمونها كون السمك لم يعد يقترب من الشواطئ كسابق عهده، بل صار يفضل أن يبقى في الأعماق الآمنة.

" لابد إذن أن الشواطئ هنا قليلة الزيارة "قال أبو بكر محدثا نفسـه. حل المسـاء، جمع حينها البحارة تلك

الأسماك الكثيرة التي اصطادوها وقد بدت السعادة على وجه الفتاة الصغيرة كونها لم ترى من قبل هذا الكم الهائل من الأسماك.

" لن يسعد أخي حين يرى هذا العدد منها، كنت قد أخبرته هذا الصباح أنني سأعود بعدد أكثر مما عاد به حين جاء للصيد رفقة والدي في المرة الماضية "قالت الفتاة محدثة صانع السفن الذي ابتسم لها، وأردفت بصوت رقيق وهي تحرك السبابة منذرة إياه:

" لا تخبره أنكم قد ساعدتمونا، قد يعتبر ذلك غشا " فراح يضحك.

مضى البحارة بين الأشجار لساعات كانت حينها جل أنظارهم مشدودة لتلك النباتات التي لم يرو مثلها، بدت ضخمة للغاية تكاد تعلوهم طولا ذات لون شديد الخضرة كما أن أصوات الطيور ومياه الينابيع التي كانوا يمرون بها تصنع شعورا بالراحة في أنفسهم، قبل وصولهم إلى إحدى التلال التي لا توجد بها أي أشجار، كان على قمتها بيت يرى من بعيد بدى وكأنه أكبر بكثير من الكوخ الذي كانوا قد شاهدوه عند الشاطئ:

" لابد أن المسن يسكن هنا "قال أحدهم في نفسه.

ورغم أنه صنع كاملا من حطب أشجار الغابة إلا أنه متماسك ذو منظر جميل، وفور بلوغهم البيت حتى فتح الباب ليظهر صبي خلفه وكأنه ينتظر وصولهم، خرج منه فرحا، قبل أن يرى البحارة وتتغير ملامحه، توقف في مكانه ساكنا دون أية حركة، مذهولا مما يراه، وبعد لحظات قليلة خرجت امرأة طاعنة في السن من خلفه راحت ترمقهم بالنظرة نفسها.

ما الذي تخفيه عنا هذه الأرض.

في المساء، اجتمع الكل حول النار الموقدة أمام بيت المسن، راحوا يشوون تلك الأسماك التي اصطادوها في وقت سابق من النهار، كان الجميع يتحدث بصوت صاخب إلا أبو بكر الذي كان صامتا لا يحدث أي صوت، مبحرا في أفكاره، تجوب رأسه أسئلة كثيرة، وفجأة قرر أن يطلق العنان للسانه،

ـ " هل كنتم تعرفون بوجود أرض تقابلكم في الجهة الأخرى من البحر؟!" قال أبو بكر ذلك وهو ينظر نحو المسن.

ليتوقف بذلك الجميع عن الحديث ويوجهوا أنظارهم إلى الرجل العجوز الذي وضع ما بيده وراح يتكلم:

ـ " هنالك قصة قديمة قد حدثني والدي عنها، حدث في زمن مضى أن زار أرضنا ذات مرة أناس قادمون من العدم، عم الذعر الجميع حين رأوا ذلك الشيء الذي لم نرى مثله قبلا يطفو فوق البحر قادما نحو أرضنا، ذلك البحر الذي كنا لا نقربه حينها ونظن أن به مخلوقات تأخذ ماشيتنا ليلا، قرر البعض أن يقتربوا من الشاطئ حيث رست، ليجدوا بشرا يختلفون في أشكالهم عن أشكالنا، لون أعينهم، ما يلبسونه، حتى أن كلامهم قد كان مبهما،

وقد ظننا في بادئ الأمر أنهم قد أتوا ليستولوا على أرضنا، غير أنهم كانوا مسالمين، مضى الشهر، ثم الشهران زاد شغفهم راحوا يحاولون تعلم لغتنا، وكنا نحن أيضا نحاول أن نتعلم ما يتحدثون به، إلى أن أتى ذلك اليوم الذي استطعنا فيه أن نفهم منهم، قالوا أن سفينتهم قد ظلت الطريق في البحر لأشهر، حتى وصلوا لهذه الأرض التي لم يكونوا على علم بوجودها، بعدها، عاشوا بيننا فترة تعلمنا منهم أشياء لا تحصى، عقيدتهم التي فسرت لنا الكثير مما كنا نجهله حول ماهية العالم والخلق رغم أن البعض منا قد اختار أن ينكر ما جاء به البحارة، كما علموا رجالنا كيف نجعل الذهب سائلا ننشئ منه قطعا غير تلك التي وجدناه عليها، نرسم به لوحات ونجعل منها أشكالا، قائلين أن أرضهم تزخر بالذهب كما تفعل أرضنا، وأن لا نية لهم به، علمونا عن البحر، أنه لا يعدو أن يكون مياها و فقط، وأنه لا يتحول لسارق في الليل، تعلمنا لغتهم وكتاباتهم، وفي يوم ما، حين أن ألفنا وجودهم، قرروا العودة إلى أرضهم بعد أن أمضوا ما يقرب العام بيننا، فمددناهم بالأكل والشرب وأبحروا بعدها عائدين من حيث أتوا، قائلين بأنهم سيعودون يوما ما " توقف الرجل هنا.

وراح الجميع يطرح الأسئلة التي رد على مجملها، وحين سأله أحدهم عن السكان قال بأنه يفضل أن يعيش

بعيدا عن القرية إلا أنها لا تبعد الكثير من هنا، وأنه باستطاعتهم أن يزوروها في الصباح التالي، فرح الصبيان حين سمعا ذلك.

" سنذهب إلى القرية "نطق الصبي محدثا أخته وهو يبتسم لتبادله البسمة

وفي الوقت نفسه، كان عقل أبو بكر يسأل سؤالا واحدا لا غير، هل هنالك من يعرف قراءة الكتاب الذي بحوزته.

الناسك

في اليوم الموالي، نهض المسن قبل أن ترسل الشمس خيوطها نحو الأرض، قائلا بأن عليه أن يتوجه نحو القرية ليستبدل السمك الذي اصطاده أمس ببعض الأرز والفواكه الأخرى، فهنا، كل شخص له عمله الذي يقوم به، وإن أراد شيئا آخر غير ما تنتجه يديه، يتوجه نحو القرية أين يستبدل بضاعته بما يريده، فسأله أبو بكر وبعض البحارة إن كان بإمكانهم أن يرافقوه؟ رد قائلا بأن أهل القرية سيفرحون حين يرونهم.

" كل شخص في القرية قد سمع قصة البحارة القدماء الذين جاؤوا إلى أرضنا، وكلهم يدركون ما قدموه لنا وسيسعدون حين يرونكم "قال المسن.

في الطريق، كان أبو بكر والعجوز في المقدمة، في حين كانت الفتاة الصغيرة وأخوها يضحكان في الخلف مع البحارة الذين كانوا يتبادلون حملهم على أكتافهم، راح أبو بكر يخلق حديثا محاولا أن يعرف شيئا عن الكتاب الذي بحوزته

- " ألم يسبق لك أن سمعت يوما عن اللغة الأولى؟ "قال أبو بكر محدثا المسن الذي كان يسير بجانبه، ثم شعر أن سؤاله كان مباشرا أكثر من اللازم.

ـ " وما تلك اللغة؟" رد المســـن وعلامات التعجب بادية على وجهه

ـ " لقد ســمعت من القصــص التي تروى أن بهذه الأرض شــخصــا يتحدث لغة غابرة الزمان، قلة قليلة هم من يكتبون بها".

ثم اســـتخرج الكتاب من حقيبته وفتحه على إحدى الصـــفحات ليريها للمســـن الذي نفى رؤية حرف من حروفها، خاب ظن أبو بكر حينها، وشعر بأنه قد قطع هذه المسـافة الطويلة هباء، غير أن المسن قاطع حبل أفكاره قائلا:

ـ " ربما تجد ضالتك عند الناسك، إنه شخص يعَلم كل ما يطلب منه، غير أنه كتوم بعض الشـيء " توقف لحظة ثم أكمل قائلا:

ـ " إنه شخص غريب إذا سألتني عنه، وقد ورث ذلك عن والده الذي التقيته في وقت مضى"

شعر أبو بكر ببعض الأمل يسكنه مرة أخرى

ـ " وأين أجد الناسك؟ أهو بالقرية؟" قال أبو بكر

ـ " إنه الشـــخص الوحيد الذي يفضـــل العيش في عزلة أكثر مني، فهو يسكن مكانا بعيدا من هنا بين الجبال

العالية، غير أنه كل يوم يرحل إليه الكثير ممن يريدون أن يسألوه شيئا، أو يتعلموا من علمه الواسع " توقف ثم دنى نحو أبي بكر وقال بصوت مهموس كأنه يخاف أن يسمعه أحد

- " وقد قيل إنه يعرف خبايا ما تحمله الأيام، أتدري، إنه شخص فذ لا تحمل أرضنا مثيلا له"

رغم أن أبو بكر لم يصدق كل ما سمعه، إلا أنه شعر بالرغبة في لقاء الرجل، خاصة أن والده قد ذكر في رسالته أن البحار قد وجد شخصا يستطيع قراءة الكتاب، ربما يعلمه تلك اللغة ويستطيع على إثر ذلك أن يقرأ ما يحتويه الكتاب.

كانت ملامح القرية قد بدأت بالظهور من هذا المكان، ورغم أن الأشجار الكثيفة تخفي الكثير من البيوت، إلا أن بعضها كان يظهر على قمم التلال الخضراء تلك، وما هي إلى لحظات، حتى وجدوا أنفسهم موضع أعين الكل، مستغربين لمنظرهم، راحوا يسألون المسن عن ماهيتهم، وراح هو الآخر يجيب، وفور أن قص لهم ما حدث معه البارحة، حتى تغيرت نظرتهم وراحوا يرحبون بهم ويطرحون عليهم الكثير من الأسئلة التي كان عليهم أن يجيبوا عن جميعها.

كانت كل بيوت القرية مبنية من الحطب تماما كبيت العجوز، غير أن أحجامها تختلف من عائلة لأخرى، كان الذهب يزين أبواب البيوت كأنه ككل المعادن الأخرى التي لا قيمة لها، فلم يروا أي أحد من السكان يرتديه كحلي.

" لابد أنه متوفر بكثرة هنا حتى صـــار منظره عاديا بالنسبة لهم "قال الفتى في نفسه.

ففي الجهة المقابلة، كانت مملكته تســتخرج الذهب من تحت الأرض بصـــعوبة حتى تبيعه للممالك الأخرى وتقبض بدلا له الأموال والبضـــائع التي كانت في حاجة لها، وبهذه الطريقة فقط، تربعت على رأس أقوى الممالك وبنت في أرضها صرحا لا نظير له.

ذلك المساء، جلس أبو بكر مع نفسه فترة من الزمن أعلى تلك التلة المقابلة للبحر والذي يعكس ضوء القمر، كان الشـعور لا يوصـف، ها هو اليوم يجلس في الجهة المقابلة من تلك الشـرفة التي كان يطل منها والده، على تلك الأرض التي لطالما كان يؤمن بوجودها لحظة ويشك بذلك في اللحظة التي تليها، فقد أثبت مالا يصـدقه الكثير من البشـر من حيث أتى، غير أنه لم يصـل لما جاء إليه بعد، نظر نحو حقيبته الموضـــوعة جانبا بعد أن تذكر الكتاب الذي كان قد جلبه من مصر.

بعد العشـاء مباشـرة، وفي لحظة من اللحظات التي اختلى فيها أبو بكر والمسن بعيدا عن الجميع، قال محدثا إياه:

" أريد أن أرتحل نحو الناسك غدا ."

مضت الساعات الأولى بسرعة كون الشمس لا تصل إليه لكثرة الأشـجار، لكن فور بلوغه مقدمة الجبل، تناقص عددها من حوله لكثرة الصخور من تحته وصار بإمكانه أن يرى القرص الأصفر الذي كان قد بلغ منتصف السماء، التقى في بداية طريقه هذا الصباح بفتى آخر قال إنه ذاهب ليتعلم من الناسـك، وأنه يعرف الطريق حق معرفة، وقد أخبره أنها طويلة جدا وأن عليه أن يحضر مؤونـة أيام من المشـي، فلا منـازل في طريقهم يمن أصحابها عليهم بالكلأ، بدا أنه لم يبلغ العشرين بعد غير أنه يظهر من العزم مالا يظهره الكثير من الرجال.

- " إنني في طريقي لأتعلم المعرفة وأبلغ درجاتها القصوى حتى أصبح كالناسك تماما، شخصا يعرف كل شيء " قال محدثا أبا بكر في وقت لاحق من ذلك اليوم.

- " فما الذي أنت بصدد طلبه ؟" !.

في البداية ما كان أبو بكر ليجيبه على سـؤاله هذا، فقد تعلم من رحلته السابقة إلى مصر أن عليه إبقاء بعض

الأسـرار لنفسـه وألا يثق بسـرعة في الأشـخاص الذين يلتقي بهم في طريقه، غير أنه كان قد دله على الطريق حتى الآن كما أنهما في هذه الرحلة معا وهذا كفيل ليجيبه على جزء من ذلك السؤال.

- " إني أريد أن أتعلم لغة أسلافنا، لقد أتيت من أرض بعيدة لأجد شـخصـا يعلمني إياها، وقد قيل لي في القرية بأن الناسك يعلم كل ما يطلب منه"

- " وما فائدة أن تتعلم لغة قديمة لا يتحدثها أحد " سـأل مرة أخرى، غير أن أبا بكر لم يرد أن يخبره بأمر الكتاب، فأطبق في صمت دون أن ينبس ببنت شفة.

- " على كل، إن الناسـك يعلم كل من يطلب منه بشـرط واحد، انه يسـمح لكل من يجتاز طريق الجبل أن يطرح سؤالا واحدا لا غير، هذا ما أخبرني به والدي حين أرسلني إليه "تابع فتى القرية قائلا

سـقط الظلام أخيرا معلنا عن نهاية اليوم الأول من رحلتهم، جلسا ليأكلا طعام العشاء مما في جعبتهم، وبعد أن فرغا من ذلك، راح الفتى يتكلم عن حياته لأبي بكر الـذي اكتفى بـالإصـغـاء فقط والتعليق في مرات حين يقتضي الأمر.

ـ " لقد كنت أنتظر هذا اليوم مذ أن قرع هذا الحلم ناصية عقلي "قال، ثم تابع:

"سأتوجه نحو الناسك، وأطلب منه طلبي الوحيد بأني أريد أن أصبح مثله تماما، أريد أن أصبح ناسكا أنا أيضا."

بدت تلك العزيمة التي يراها في الفتى مألوفة لأبي بكر، إنها تشبه إلى حد بعيد تلك التي انطلق بها من المملكة في بحثه عن هذه الأرض، وقد استطاع بفضلها أن يتمسك بالأمل وألا يعود أدراجه من منتصف الطريق، وقد استمرت قصص فتى القرية تتكرر يوما بعد يوم، حتى راح أبوبكر يتحدث هو الآخر، فقد شعر بالطمأنينة أخيرا نحو الفتى الذي اعتاد صحبته.

"لقد أخبرت رجالي الذين قدموا معي من الأرض البعيدة أنني قد أتأخر في رحلتي هذه، فلا علم لي كم ستكلفني من وقت، تاركا لهم حق الاختيار، بين أن ينتظروا رجوعي، أو يمضوا من دوني عائدين نحو موطنهم، وقد أراد بعضهم أن يرتحل معي إلى هنا، غير أنني قابلتهم بالرفض قائلا بأن هذه الرحلة قد خلقت من أجلي فحسب."

وبعد تلك الأيام الكثيرة من المشـــي دون توقف، من الأحاديث، من مناظر الغروب الجميلة، بلغوا أخيرا أعلى قمة أحد الجبال التي ترى من هناك كل شيء في الأسفل

ـ "لقد وصلنا" ، قال الفتى محدثا أبا بكر.

الناسك أخيرا

كان تحفة فنية لم يرى مثلها من قبل، فعكس البيوت التي كان قد رآها في القرية والتي صـــنعت من حطب الأشجار، صنع هذا القصر الكبير من الحجارة المزخرفة المتراصـــة بطريقة منظمة لم يرها حتى في مملكته التي كان يظن أنها تسبق في هندستها أي مملكة أخرى، سأل نفسه:

" كيف يمكن لمكان يخاف سكانه من البحر، أن يبني أحدهم فيه قصرا كهذا؟".

كانا قد بلغا قمة الجبل، وقد أخبره الفتى أن الناسك يعيش هنا، تقدما نحو بوابة ضـــخمة مفتوحة على مصـــراعيها، ليعبرا من خلالها إلى إحدى الســـاعات الشاسعة، وبعد تقدمهم بخطوات قليلة أخرى، وصلا إلى إحدى البوابات الصـــغيرة التي علقت في منتصـــفها كرة حديدية، حركها الفتى لتحدث صـوتا في الباب، معلنة أن خلفهـا أحـدهم، انتظرا أن يفتح أحـدهم البـاب غير أن انتظارهم طال لساعات وساعات، حتى كاد الليل أن يخيم، عندها، شـعرا أن المكان خال تماما وأنهما وحيدان هنا، غير أنه فجأة قبل أن يغطان في النوم حين قطعا كل أمل

من أن يفتح ذلك الباب، تحرك دون سابق إنذار، ليجداه خلفه.

" ادخلا "قال محدثا إياهما.

كان المنظر من الداخل يفوق جمال خارجه، الأنوار في كل مكان حتى لا تكاد ترى زاوية مظلمة، جلسا أمامه وعيناهما تحومان في الغرفة، كانا مشدودان إلى كل شيء هناك، تلك اللوحات المعلقة في الحائط من خلفه، الكراسي التي لم يروا مثلها أبدا، بدى كل شيء من عالم آخر كأنهما قد سافرا عبر الزمن، من تلك القرية الصغيرة التي يظن سكانها أن وحوشا تسرق ماشيتهم ليلا، إلى هذا المكان، كان أبو بكر مذهولا لرؤيته ذلك، تقبع في رأسه آلاف الأسئلة التي لن يعرف إجابتها بسهولة.

ـ " ما الذي أتيتما لأجله؟" قال الناسك بصوت أجش محدثا الفتيان.

أعادهما صوته إلى مكان جلوسهما بعد أن كان كل واحد منهما في مكان آخر من الغرفة، كانت لحيته سوداء تغطي رقبته تماما، غير أن بعض البياض قد بدأ في الظهور عند أطرافها معلنا أن الرجل قد تعدى النصف من عمره .

ـ " أريد أن أصبح ناسكا " قال الفتى القادم مع أبي بكر دون تفكير، ثم تابع:

ـ " لقد مرت هذه اللحظة في مخيلتي مرات ومرات، وقد نسج عقلي إجابات عديدة كنت تجيبني بها، في إحداها قلت لي بأن الناسك يجب أن يكون من العائلة، وأنك قد أصبحت كذلك بعد أن توفى والدك وأنه ليس بمقدور أحد، أن يصبح ناسكا فجأة، أعود على إثر ذلك أجر خيبتي وأنا أنزل الجبل، غير أنني هنا اليوم، لأطلب منك طلبين بدل الواحد، أن تعلمني لأصبح ناسكا راجيا منك ألا ترد طلبي هذا " تذكر أبو بكر قول الفتى بأنه عليك أن تكون واضحا في طلبك، غير أن فتى القرية نفسه قد ارتبك وراح يتكلم طويلا

لم يقل الناسك شيئا على عكس ما كان متوقعا، بل توجه بعينيه صوب أبي بكر والذي راح يتفحصه بعينيه مدركا أنه من مكان آخر غير القرية

ـ " وما الذي جئت أنت من أجله؟" قال محدثا إياه

شعر بخفقان في صدره لأول مرة، كأنه في حضرة شيء لا يدرك ماهيته، فقد اجتمع بملوك وعلماء كثر من قبل، لكن هذا الرجل الجالس أمامه هنا، كان يتعدى كل ذلك.

-" لقد أتيت لأتعلم اللغة الأولى في الأرض " ولم يضف بعد قوله هذا شيئا، لم يخبره عن رحلته الطويلة التي قطع فيها الصحاري الكبرى، عن المحيط الذي ما كاد ينتهي، عن الكتاب الغريب الذي في محفظته الصغيرة بجانبه، وعن كونه ملكا سابقا، مدركا أن كل هذا غير مهم بالنسبة للناسك، كل ما يهمه، هو السبب الذي دفعه لدخوله قصره هذا.

ظهرت علامات على وجه الناسك، كأنه لم يسمع طلبا كهذا من قبل، غير أنه لم يسأله لم يريد أن يتعلمها، بل نهض من مكانه، وقال وهو يخطو خارج الغرفة، سنبدأ في الصباح إذن.

أشد علما

مرت الأيام بسرعة دون أن يلحظ أبوبكر ذلك، كان يمضي مجمل ساعاته في التعلم مع فتى القرية على يد الناسك، الذي ورغم الوقت الذي كان قد قضاه معه، إلا أنه لم يعرف عنه الشيء الكثير، فقد كان قليل الكلام، عابس الوجه، ظن أبو بكر على إثر ذلك أنه لا يعرف كيف يبتسم أو أنه قد أمضى من الوقت الكثير في وحدته أعلى هذا الجبل جعلته ينسى كيف يفعل ذلك.

أحيانا، كان يأتي بعض القرويين ليطلبوا إجابات لأسئلتهم، يمضي ذلك اليوم دون أن يتفرغ ليعلمهم شيئا فيضطرون أن يقرؤوا من الكتب الكثيرة التي يمتلكها، والتي لم يقرأ أبوبكر مثيلها من قبل وهو الذي ظن نفسه قد قرأ كفاية لكيلا يفاجئه أي كتاب آخر، غير أن تلك الكتب تختلف عن أي كتاب قد رآه قبلا، راحت الأشهر تتوالى، نسي فيها أبو بكر البحارة الذين كانوا ينتظرونه أسفل الجبل، فما عاد يشغل باله غير تلك اللغة التي كان يتقدم فيها ببطء شديد.

كان قد درس في جامعة تمبكتو في مملكته لسنوات على يد أفضل علماء المملكة، وقد عرف بسرعة التعلم حينها، لكنه اليوم يقف عاجزا أمام هذه اللغة التي

استعصت عليه، كانت ذات أحرف متشابكة يصعب نطقها أو حتى كتابتها، وقد سأل الناسك في مرة من المرات، لم قد يصنع الإنسان لغة يصعب عليه تعلمها؟ فأجابه بأن كل لغة موجودة الآن قد بدأت بهذا الشـــكل، لتتوالى عليها الأجيال بعدها لتبســط مفهومها ونطقها وحتى حروفها، حتى يصـبح بمقدور أي شـخص جديد أن يتعلمها، وفي الحقيقة، رغم أن فعل ذلك يســـاعد اللغة في اكتســـاب متعلمين جـدد، غير أنهـا تزول مع الوقـت وتظهر لغـة جديدة وليدة رحم القديمة.

ـ " ألا زلت تقرأ وأنت الذي يأتيك البشر من مشارق الأرض ومغاربها ليأخذوا قطرة من علمك؟" قال فتى القرية محدثا الناســـك حين وجده غارقا في أحد الكتب وبجانبه أبو بكر الذي يحمل ريشـــة يحاول بها أن يخط بعض الأحرف على ورقة بيضاء أمامه.

ـ " ليس بوسع أحد أن يجزم أن معرفته كاملة، ففي الحقيقة، ليس هنالك شيء يدعى الكمال، إنها كلمة دخيلة على طبيعة البشر " رد الناسك

ـ " لكن الجميع يشـــهد لك بأنك أشـــد من على هذه الأرض علما " قال فتى القرية وهو يجلس

أغلق الناسك الكتاب بين يديه، ثم قال.

" حدث في وقت مضى أن خطب رجل بين الناس، تكلم لساعات طويلة كان فيها الحضور يطرقون السمع لحديثه دون ملل، وعند انتهاء تلك الخطبة مشى الرجل قاصدا بيته، حتى استوقفه شخص ممن كانوا حاضرين في خطبته قائلا أنه يريد أن يطرح عليه سؤالا واحدا لا غير، "أيوجد من أشد منك علما على هذه الأرض ؟قال السائل، فرد الرجل دون تفكير:

" أنا أشد الناس علما" ، حينها عاتبه الخالق لقوله هذا، وأمره أن يتبع نهرا جار ليريه شيئا ففعل، وفي طريقه بجانب النهر، التقى برجل طلب منه أن يتخذه تلميذا يوما كاملا أراه فيه بعضا من علمه القليل، فذهل لشدة علمه، ورغم كل ذلك، لم يقل معلمه بأنه أشد الناس علما على هذه الأرض."

عند هذا الحد، أصاب الذهول أبو بكر الجالس بجانب الناسك، كانت هذه القصة تشبه قصة يعرفها جيد المعرفة، فقد كانت تروى في ثقافته ويعرفها الصغير قبل الكبير في مملكته، لكن، كيف للناسك الذي يسكن أقطاب الأرض أن يعرف عنها، كيف تناقلها البحر.

بعد أسبوع آخر، أخبر الناسك أبو بكر أنه قد انتهى من تعليمه، وأن باستطاعته الرحيل.

قصة سيفار

تكلم أبو بكر قبل أن ينطلق في رحلته عائدا إلى البحارة أسفل الجبل مع الناسك للمرة الأخيرة وبجانبه فتى القرية الذي سيبقى لينهي تعليمه، كان الصمت يعم المكان، والحزن أيضا

وعلى عكس المتوقع، بدأ الناسك بالحديث أولا هذه المرة

- " لقد مر عام الآن، وقد أتقنت الحديث والكتابة بتلك اللغة جيدا، وفي هذه الأشهر لم يسبق لي أن سألتك ولو مرة واحدة أي سؤال، كنتُ دائما الشخص الذي يجيب، غير أنني الآن أريد أن أطرح عليك سؤال واحدا لا غير " توقف هنيهة وهو يشخص النظر في أعين أبي بكر قبل أن يقول مجددا".

" لقد أمضيت عمرا كاملا في هذا المكان، وقد كان سبب وجودي واضحا وضوح الشمس، هو أن أساعد كل من يسأل عن المعرفة، وقد مر على هذا المكان الذي تقفان عليه آلاف الأشخاص الذين جاؤوا كما جئتم أنتم، ليسألوا سؤالهم الذي استعصى عليهم حدا كبيرا حتى بدا لهم أن طريق الجبل أسهل بكثير من وقع ذلك السؤال في أذهانهم، وأن هذا الدرب هو حلهم الأخير ليصلوا إلى

جوابهم، وقد زارتني جميع الفئات، المتدينون الذين فقدوا الصلة مع معبودهم، النساء اللواتي عرفن أن تقديم رجالهم لأولادهم الصغار قربانا خطيئة يجب التوقف عنها، وغير ذلك الكثير، وفي هذه الفترة، لم يسبق لأحد أن سألني عن تلك اللغة غيرك، وأنت الذي قطعت طريقا أطول مما قطعه كل من أتوا إلي "

شعر أبو بكر بالارتباك، فقد كان الناسك يعلم منذ البداية أنه ليس من هذه الأرض غير أنه أمضى عاما كاملا دون أن يسأله من أي أرض هو، ربما كان يعلم أنه قادم من وراء البحار، ظن الفتى

-" ما الذي تصبوا إليه من خلال تعلمك لها ؟!" سأل الناسك

نشأت عقدة في لسان أبي بكر فجأة، أيجيب على هذا السؤال، ويريه الكتاب الذي كان قد أخفاه عن الجميع حتى بحارته أسفل الجبل، أم يلزم الصمت كما كان يفعل عادة حين يتهرب من أي سؤال، أخذ نفسا عميقا، واستخرج الكتاب من حقيبته.

لم يرى أبو بكر الناسك بهذا الشكل منذ أن قدم حين وضع الكتاب بين يديه، بدى مذهولا وهو ينظر لتلك الأحرف على غلافه، فتحه وراح يقلب صفحاته واحدة تلو الأخرى والتي كان يتوقف عند بعضها ليقرأ منها

جزءا قبل أن ينتقل إلى صفحة أخرى، غير مصدق ما تراه عيناه، وماهي إلى لحظة حتى نظر نحو أبي بكر مجددا، وسأله سؤالا ثانيا.

" من أين لك بهذا الكتاب؟!"

راح أبو بكر يقص عليه كل شيء من البداية، وقد ذهل فتى القرية مما كان يسمع، فلم يكن يعلم قط أن من رافقه طول الطريق قد كان ملكا، وحين أنهى أبو بكر الحديث، شعر كأن وزنا قد أزيل عن كاهله، أعاد الناسك الكتاب إلى أبي بكر، وقال:

" لقد أتيت لتسأل أن تتعلم لغة، لكنك لم تسأل قط، من يكون أولئك الذين نطقوا بها ؟" !وراح بعدها يقص عليه

ـ "في وقت مضى لا يتذكره أحد، كانت هنالك' أرض أخرى 'بين هذا المكان والمكان الذي جئت منه، كانت تشبه إلى حد بعيد الجنة، ترى فيها هندسة ومعمارا يفوق ما قد يخيله لك ذهنك، علوما لم يصل إليها البشر حتى يومنا هذا، وقد كانت مقسمة لسبع ممالك، لكل منها علمانها التي تفتخر بهم، بنيانها التي تتنافس في علوه الممالك الأخرى، وكتبها التي تخبأ فيها أسرارها، غير أن تلك الأرض لم تكن ترحب بالزوار الذين يأتون إليها عبر البحر، فمن يحط بها خطأ يختف ولا يعرف طريقا للعودة، ظن السكان من عالمينا أن في البحر مخلوقات تأكل كل

من يقترب منه حتى صارت الشواطئ محرمة لا يقربها أحد.

وفي أحد أيام ذلك الزمن، بدأ المطر يتساقط في أحد القرى، شعر الأطفال بالحزن كون أن مياه المطر المنهمر يمنعهم من اللعب في الخارج، مضى يوم ثم أسبوع، فشهر، غير أن ذلك المطر لم يتوقف قط، بل لم تقل غزارته عن تلك التي كان قد بدأ بها، لكن، ما كان الأطفال في تلك القرية ليعلموا أن المطر يسقط فوق كل الأراضي والبحار دون توقف، وبعد ثلاثة أشهر من ذلك، ارتفعت نسبة مياه البحر وأغرقت القرى القريبة منه، فبدأ الناس في الرحيل قاصدين الجبال الشاهقة تاركين خلفهم كل شيء، لكن المطر كان له رأي آخر، فقد ظل يهطل حتى أغرق البحر اليابسة عن آخرها.

أما في الأرض الأخرى، فقد حدث شيء آخر، فقد قاموا بصنع سبعة سفن ضخمة حملوا على متنها كل ما كانوا في حاجة إليه قبل أن تغرق أرضهم وعمرانهم، من كلأ يقيهم الجوع وماء يقيهم العطش، وحتى كتبا تقيهم الجهل، والتي تحتوي كل ما توصلوا إليه من علوم.

بقيت تلك السفن فوق المياه لأشهر مبحرة دون توقف نحو وجهة مجهولة، حتى أتى ذلك اليوم، الذي وجدت فيه السفن السبع أرضا لم يبلغها الماء بعد، رست فيها

ليضع الجميع أقدامهم على اليابسة مرة أخرى، بدأ المطر في التناقص بعد أســـابيع قليلة، حتى توقف ذات نهار وبزغت الشمس من جديد، راحت العائلات السبع الحاكمة تتقاسم تلك الأرض التي أسموها' سيفار 'إلى سبع مناطق فيما بينها، وبدأت كل واحدة منها ببناء أرضها وتعميرها مرة أخرى، وفي تلك الفترة أخذت الأرض تبتلع المياه إلى جوفها، حتى أتى ذلك اليوم، الذي نهض الجميع على مشهد مياه البحر وهي تنسحب، مضت أيام أخر بعدها، حتى اختفت المياه تماما تاركة خلفها رمالا كثيرة تحولت على إثرها تلك الأرض الخضراء التي حطوا الرحال فيها ذات مرة إلى صحراء قاحلة يخيل لك أن اللهب يتصاعد من رمالها.

راحت تربة' سيفار 'تتخذ لونا أحمر من شدة الحر، وبدأت الرمال تزحف نحوها لتغطي ما بناه سكان الأرض الأخرى، وأخذت مياه الشرب في التناقص حتى توفي من لم يقوى على الحر، أخذ الموت الكثير منهم، كما أخذ جوف الليل ما تبقى، فقد كان البعض يرحل في الظلام الدامس مقررا أن يخاطر بعبور الصحراء نحو المجهول على أن يبقى ليموت عطشا، حتى بقيت مدينة سيفار ذات اللون الأحمر قابعة هناك في الصحراء وحيدة إلى يومنا هذا " توقف الناسك حينها ليشير إلى ذلك الكتاب بين يدي أبي بكر، وتابع قائلا:

"إن هذا الكتاب الذي بين يديك هو أحد الكتب الكثيرة التي كان قد حملها البعض ممن عبروا تلك الصـــحراء ونجو، بعدها، أقيمت ممالك كثيرة على أسس وتعاليم تلك الكتب، فقد كانت نهاية تلك الحضارة هي بداية حضارات عدة حول العالم، غير أن ذلك لم يستمر كثيرا، فقد توفي من تبقوا من سـكان الأرض الأخرى، ونسـي العالم تلك اللغة التي تُقرأ بها الكتب، اللغة الأولى، اللغة التي جئت من أجلها أنت إلى هذا المكان. "

كأنه قد اكتشـف سـرا عظيما، شـعر أبو بكر، بدا أن الكتاب بين يديه قد أصـبح فجأة أطنانا من الحديد التي لا تقوى يداه على تحريكها.

توقفت ماندين هنا مغلقة الكتاب بين يديها، تذكرت حينها الرسالة الثانية من صاحب المدونة والذي كتب لها فيها أن الأهرام تتشـــابه في الأرض كون أنها نتيجة حضـــارة واحدة لا غير، لقد كان الكتاب الذي بين يديها الآن، يجيب على تســاؤل الكاتب التي كانت قد قرأت له ذات مرة وهي صـغيرة، " كيف بدأت تلك الحضـارات؟" أخذت نفســا عميقا للغاية حتى امتلأت رئتيها، ثم أطلقت سراح ذلك الهواء بداخلها، شعرت أنه قد حان الوقت كي تكمله وهو الذي لم يبقى منه إلا صـفحات قليلة، فتابعت القراءة.

البحارة

كان نزول الجبل أسهل بكثير من صعوده في نظر أبي بكر، فقد استغرقه الأمر أياما أقل ليصل إلى القرية.

- " ربما لأنني كنت وحيدا ولم يكن معي أحد ليهدر وقتي بالحديث بدل المشي، وبذلك كنت أولي الطريق كل اهتمامي دون غيرها، فحين يحدد المرء هدفه ويركز فقط على الدرب إليه، يكون الوصول سهلا "قال في نفسه وهو يقف أخيرا أمام بيت صياد السمك.

نظر نحو البحر الذي لم يتغير به شيئ رغم مضي عام كامل دون أن يقربه إلى هذا الحد، ثم راح يدق الباب، غير أنه ظل موصدا في وجهه دون أن يفتح، ظن أن البحارة مع الصياد أسفل تلك التلة يصطادون السمك، فقرر الانتظار للمساء، غير أن الساعات البطيئة مرت دون جدوى، حتى حل الظلام وعم السكون المكان، غير أنه لم يأتي أحد قاصدا ذلك البيت، فقرر حينها التوجه إلى القرية، لعلهم قد انتقلوا للعيش هناك، نافيا ذلك الشك الذي كان ينتابه ثوان قليلة قبل أن يختفي.

- " ربما قد رحلوا من دونك."

- " لقد توفي الصياد، ورحل بعض البحارة من حيث أتوا بعد أشـــهر قليلـة من قـدومهم، ولم يبق منهم إلا شـخص واحدا لا غير " قال أول رجل قابله حين وصـل القرية.

- " وأين يمكنني أن أجد ذلك الشخص؟" رد أبو بكر والأسى يعم صدره.

أشـار ذلك الرجل نحو أحد البيوت القريبة والتي بدت كأنها حديثة النشـأة، ليشـكره أبو بكر ويمضـي نحو باب البيت وقلبه يكاد يخرج من أضلاعه، حتى راح يدق ثاني باب هذا اليوم، راجيا ألا يظل موصـــدا في وجهه هو الآخر، ليفتح له رجل ذو لحية صفراء اللون بدى مذهولا وهو ينظر نحو أبي بكر قبل أن يحتضنه.

" لقد أخبرتهم أنك ستعود، لقد أخبرتهم" ، إنه صـانع السفن نفسه.

راح يقص له بعدها كيف أن البحارة انقسموا لقسمين حينهـا، فقد قرر البعض أن يعودوا أدراجهم عبر البحر الكبير، وقرر البعض الآخر أن ينتظروا أبا بكر، وقد كان صـانع السـفن يقف في وجههم في كل مرة يحاولون فيه الرحيل، ويخبرهم أنه ســيعود لا محالة، مرت الأشـــهر وتناقص عدد أولئك الذين أرادوا البقاء، حتى وجد صـانع

الســـفن نفســـه يقف وحيدا ذات يوم، وأدرك أنه ليس بمقدوره أن يقف في وجههم بعد الآن.

فترجاهم أن يتركوا سفينة وأن يبحروا بأخرى نظير الأيام الخوالي التي قضــوها ســوية، وهذا ما فعلوا، فقد جمعوا بعدها المؤونة لطريقهم، ومضـــوا عائدين نحو الديار.

مرت بعدها الأيام، اختفى فيها أبو بكر فترة من الزمن بعد تلك الليلة، كان يذهب حينها إلى الســـفينة قرب الشـــاطئ والتي بدى كأنه لم يمض على فراقهما يوما واحدا فقد كان صـــانع الســـفن يعتني بها طيلة ذلك العام، يجلس هناك دون حراك لســـاعات طوال يراقب فيها بزوغ الفجر كل يوم، وذات صـــباح، دق أبو بكر ذلك الباب مرة أخرى.

" ســـننطلق عائدين نحن أيضـــا، لنتجهز "قال أبو بكر بعد أن فتح له صانع السفن الباب.

البحر مجددا

وقف أبو بكر في مؤخرة السفينة التي انطلقت منذ قليل من الشاطئ، ينظر إلى تلك الجبال التي بدأت تختفي خلف الأزرق بترتيب طولها، كأن الأمر يعاد مرة أخرى لكن هذه المرة في الضفة المقابلة للمرة السابقة، خطى بصعوبة فوق السفينة حتى بلغ مقدمتها، كان شعورا مذهلا وهو يبحر مرة أخرى، ويرى سفينته تخترق الموج مجددا، وأنه عائد إلى موطنه.

استخرج الكتاب من حقيبته، ها هو اليوم بعد عام من التعلم باستطاعته أخيرا أن يقرأ ما كتب فيه، قرأ عنوان الكتاب" سيفار"، ليفتحه على صفحة من صفحاته والتي كانت تحمل رسمة في أعلاها لبعض الأهرام، وتحتها بعض الكتابات التي لم يعد يراها رموزا بعد الآن، راح يقرأ منها:

" كانت تنشأ بعض الموجات العالية في البحر حين تتحرك الأرض، فتغرق ما بنيناه ويموت الكثير من السكان، قررنا بعدها أن ننشأ أشكالا كالجبال ، فلو نظرنا إلى هذه الأخيرة لوجدنا أنها المنفذ الوحيد لتلك الفيضانات التي تحدث فجأة، في بادئ الأمر، نأتي بطين الحكمة التي لا يعلم طريقة صنعها إلا القليل، نشكلها

بواسطة قوالب ضخمة لتصبح كالصخور تماما، ثم نمررها على النار قبل أن توضع في الماء لأيام معدودة لتنشأ في الأخير صخور يصعب كسرها، كنا ننقل الطين إلى أعلى الهرم بدل أن نصنعها في الأرض كون أنه لا يمكن لمائة من الرجال الأشداء تحريك تلك الصخور، وبهذه الطريقة فقط، استطعنا في أعوام قليلة أن نصنع تلك الأهرام، واجهنا بها طغيان البحر "

توقف عند هذا الحد من القراءة ليتذكر الأهرام التي كان قد زارها في مصر من قبل، كانت الصخور ضخمة بحيث يعجز أي شخص على حملها.

" لابد أن رواية الناسك صحيحة " قال في نفسه.

نظر نحو الكتاب الذي بين يديه، ثم أردف:

" لابد أن ما يحتويه يفوق كل ما نعرفه حقًا" ، قبل أن يعيده لحقيبته.

راح يتذكر بعدها والده الذي بث فيه تلك الروح التي لولاها ما كان ليبحر نحو هذا المكان، تذكر الوعد الذي أعطاه لآرتيميس بأنه سيعود يوما بعد أن ينتهي من رحلته هذه، وهاهو اليوم يفعل ذلك، تساءل عما إذا كانت قد تجاوزت وفاة والدها، فقد مر بذلك من قبل وقد أخذ منه الأمر عاما كاملا ليفعل ذلك.

استخرج مذكرته التي لم يكتب بها منذ تلك الليلة فوق هذه السفينة، ليفتحها على صفحتها الأخيرة ثم راح يكتب عليها بضعة أسطر بتلك اللغة التي كان قد تعلمها على هذه الأرض.

أعادت ماندين قراءة تلك العبارة مرة أخرى، " فتح مذكرته على الصفحة الأخيرة .وكتب بتلك اللغة التي تعلمها على هذه الأرض" ، شردت لحظة من الزمن عندها، وراحت تقلب الصفحات القليلة المتبقية من كتاب المذكرات حتى بلغت الصفحة الأخيرة لتجد تلك الكتابة الغريبة، نبست شفتاها بعد أن راحت تقلب الكتاب بين يديها كأنها تراه لأول مرة " إنها مذكرات أبو بكر."

ماندين والكتاب

في اليوم الموالي، زارت ماندين المدينة، واستمتعت بمناظرها التي لم ترى مثيلها في مكان آخر، أخذت جولة فوق النيل الذي يصعد على ظهره البشر مثقلين بكل مصاعب الحياة وينزلون وهم أخف وزنا، كأن ذلك النهر يسحب كل هم منا إلى أعماقه.

ثم توجهت لمتاحف المدينة لتستمتع برؤية التيجان المرصعة بالذهب والتي تعود للعائلات الحاكمة في مصر القديمة، وقد رأت مومياء حقيقية أمامها تلفها قطعة قماش تعود إلى عصور خلت، أمضت ماندين اليوم بكامله في الخارج حتى ساعاته الأخيرة، أحست بعدها أن لا رغبة لها في العودة للمنزل مرة أخرى، ظنت في بادئ الأمر أن السبب يعود لكون المدينة الجميلة لا تترك زائرها ليرحل قبل أن تريه كل ما في جعبتها، غير أنها أدركت لاحقا، أن السبب وراء عدم رغبتها بالعودة للمنزل بالتحديد، هو أنها لا تستطيع أن تجلس في غرفتها، وأن تمسك الكتاب مرة أخرى لتقرأ صفحاته الأخير، وتنهي تلك القصة وتودع الكتاب للأبد.

والسيء حيال الأمر، أن ذاكرتنا قابعة هناك بداخلنا، لا تسنح لنا أن ننسى ونعيد قراءة الكتاب مرة أخرى، فلا

يكون بوسعنا إلا أن نضعه قبالتنا، نزوره مرات لنقرأ بعضا من أسطره، فبعض الكتب يصعب فراقها تماما كالبشر، غير أنه وفور عودتها، وجدت كاثرين تحمل في يديها رسالة لها،

إنه صاحب المدونة مرة أخرى

" ها أنت ذي تنهين الكتاب الذي بين يديك، أما الآن، فإما أن تصدقي كل ما جاء في مذكرات أبي بكر التي كان قد خطها بعد أن أنهى رحلته تلك، أن تكتبي عن قصة الأرض الأخرى وعن سيفار أيضا، أو أن تؤمني ببعض الكتاب وتكفري بالبعض الآخر، فتنشري قصة الأرض الأخرى التي كنت قد جئت من أجلها وتنسي أنك قد سمعت عن سيفار، لكن، قبل أن تتخذي أي قرار الآن، دعيني أخبرك بشيء ما، في أرض عربية، وجدت مدينة منذ آلاف السنين قيل أن عمرها يتخطى عمر البشر أنفسهم، في حين قال البعض أنها المدينة الأم للبشر، تقبع في صحراء قاحلة يصعب الوصول إليها، ذات لون أحمر تراه على بعد آلاف الأمتار."

حين تنظر إليها من السماء، تظن أنك ترى مدينة فارغة على مصراعيها، ترى أروقة شوارعها المنتظمة بطريقة يخيل لك أنها بنيت منذ سنوات فقط، وأنها لم تكن موجودة هناك منذ آلاف السنين، ترى

جدرانها العالية وهي تحمل رسومات حيرت كل من رآها، كان وصفها كوصف سيفار تماما، الأرض التي حطت فوقها السفن، زارها بعدها مجموعة من البشر الذين عرفوا القصة ليتأكدوا منها، أعادوا بعدها لتلك المدينة المجهولة اسمها، سيفار، تقبع الآن في صحراء الجزائر، راجيا منك لو تزورينها قبل أن تقرري عما ستكتبينه."

آرتيميس.

في مســـاء يوم عاصـــف كانت فيه الأمواج عاتية، والضـــباب كثيفا يمنع الرؤية، ظهرت فجأة ســـفينة من العدم في عرض البحر راحت تقترب نحو الشـــاطئ وهي تحاول النجاة، وبعد فترة وجيزة أوقفتها الرمال لينزل من عليها شـخصـان راحا يحاولان بصـعوبة اختراق الرياح الشديدة القادمة باتجاههم، وبعد ساعات من المشي وسط الرمال، بلغا إحدى المدن الكبيرة، وضـع كلاهما قماشـا يغطيان به عن وجهيهما، ومضـــيا في الأروقة الفارغة لتلك المدينة تحت أصـوات المطر حتى بلغا أحد المزارع، تقدما إلى البيت الذي يتوسط كل شجيرات التفاح الصغيرة تلك، ثم راح أحدهما يدق الباب حتى فتح ليدخلا منه.

وقف نعمان مذهولا كأنه يرى شـــبحا أمامه، إنه أبو بكر الذي كان قد مات حين غرقت السـفينتان، يقف أمامه وينظر نحو عينيه، ظن في بادئ الأمر أنه قد خرف وأن ذاكرته بلغت الحد الذي تصـور له فيه السـراب، فقد حدث البارحة أن قطف ثمرات إحدى الأشـجار صـباحا لينسـى ذلك ويعود إليها في المساء ليجدها فارغة.

ـ " لقد أكل الشـيب بقية رأسـك، إن الزمن لا يرحم أحدا " قال أبو بكر

شـعر نعمان أن نبضـات قلبه تكاد تتوقف حين سـمع ذلك الصوت

ـ "ك ..كيف يمكن ذلك، ألم تغرق سفنكم؟" قال نعمان بصعوبة

ـ " ومن قال إن سـفننا قد غرقت ؟ "!رد أبو بكر ضانا منه أن البحارة الذين عادوا أدراجهم قد قالوا إنه قد غرق

جلسـوا بعدها ليقص عليهم ما حدث بعد انطلاقهم، أنه قد عادت سـفينة من تلك السـفن، قائلة إنه وفي ليلة عاصفة هوجاء، أخذ فيها تيار البحر السفينتين الأخريين، ليقرروا بعدها العودة، وقد ظن البحـارة أنهم النـاجون الوحيدون من تلك العاصفة، فأقامت المملكة العزاء خلف البقية.

ـ " وهل عادت سفينة أخرى بعدها ؟ "!سأل أبو بكر قاصدا البحارة الذين عادوا حين ارتحل نحو الناسك.

ـ " لا، لم تعد بعدها أي سفن " رد نعمان،

نظر أبو بكر حينها نحو صـانع السـفن بجانبه، مدركا أن مكروها قد وقع لتلك السفينة في طريق عودتها، تبادلا الأخبار والقصـص، علم بعدها أبو بكر أن أخته أسـمهان قد توفت، شـعر بالأسـى على كل ذلك، ظل أبو بكر بعدها

مدة من الزمن عند نعمان دون أن يخبر أحدا عن عودته، يتقلب في آلامه تلك، جابت خلده أرتيميس التي تنتظره عند المعبد.

" ربما قد حان الوقت لأعود إليها "قال، وبعد أشـــهر أخرى من عودته، وفي صباح يوم من الأيام

استيقظ ليخبر صانع السفن، أن عليه الرحيل،

- " إلى أين تريد الرحيل مرة أخرى ؟ "إسـأل صـانع السفن.

- " بعد أول خطوة لـك نحو هـدفـك، لن تســـتطيع التوقف أبدا ."رد أبو بكر قبل أن يسأل نعمان سؤالا تمنى أن يجيبه عليه،

- " أين تقع سيفار "؟!

الجزائر

بعد أسبوع من إنهاء ماندين قراءة تلك المذكرات، راحت بعدها تكتب مذكرة تخرجها، غير أن طلب صاحب المدونة لم يفارق مخيلتها، أتكتب عن أبي بكر فقط، أم تتعدى ذلك وتتحدث أيضا عن سيفار، لقد قرأت عنها كثيرا في الأيام الأخيرة، وقد عرفت أنها تقع في صحراء الجزائر الكبرى، وقد كان وصفها يتناسب تماما مع وصف الناسك لها، بدت مدينة لم يشهد التاريخ مثلها، تحدثت بعدها مع آدم الذي شعر بالحماس لزيارة بلد عربي آخر، قائلا أنه لايزال متسع من الوقت من أجل أن يدفعوا عملهم، وقررا أخيرا أن يرحلا نحو الجزائر، لكن قبل ذلك، أعادت ماندين مذكرات أبي بكر إلى المكتبة، قائلة أنها تعد تراثا مصريا، ولا يمكن لها أن تأخذه، فقد نُهب تاريخ مصر بما فيه الكفاية، ولا تريد أن تشارك في ذلك ولو بقطعة واحدة.

فتحت ماندين باب المكتبة، لتقرع الأجراس الموضوعة فوق الباب منذرة البائع بوجود شخص قد دخل، انتبهت أنها لم ترى تلك الأجراس في المرة السابقة حين أتت باحثة عن الكتاب، لابد أنها قد وضعت مؤخرا، لتجد المسن الذي كانت قد التقته في المرة الماضية ينظر إليها من فوق نظارته حاملا بين يديه نفس الكتاب الذي

كان يقرأه قبلا، تبادلا التحية، وأخبرها أنه لا يتذكر قدومها من قبل كون أن هذه المكتبة هي الوحيدة في الجوار وبذلك فهي تستقبل الكثير من القراء الدائمين، مشككا في أنها قد اعتقدت أن كل كبار السن ينسون وراح بعدها يقص لها قصة لعبه الشطرنج وحفيدته.

ـ " لقد أتيت لأسألك عن كتاب كان قد أخذه زميل لي من هذه المكتبة منذ أسبوعين أو أقل، وقد قلت أنك لم تكن على علم بوجوده في مكتبتك " وراحت تستخرج الكتاب من محفظتها لتريه للبائع " ألا تتذكر أن شخصا أتى ليخبرك أنه يريد أن يضع هذا الكتاب في رف من الرفوف، ألا تتذكر شكله ؟" !

أعاد المسن نظارته التي كانت تتدلى على صدره إلى مكانها ليمعن النظر في الكتاب، وبعد هنيهة أزالها مرة أخرى قائلا أنه لا يعلم كيف وصل هذا الكتاب تحديدا لمكتبته، فلم يسبق له أن رآه قبل أن يأخذه الشاب.

ظهرت علامات الخيبة على وجه ماندين التي شردت للحظة حين علمت أنها قد تغادر مصر دون ان تعرف من كان يراسلها كل هذه الفترة، ليجيبها عن كل التساؤلات التي تقبع في رأسها، مشت بين رفوف المكتبة، ووضعت الكتاب في مكان ما بين تلك الكتب، معيدة إياه إلى مكانه وقد شعرت بأنها تودع شخصا لا كتابا، فبعض الكتب قد

تصـبح قريبة من ذواتنا يصـعب فراقها كما قال أبو بكر وهو في المعبد، رافقها المســن بعدها إلى الباب وهي تشكره نظير وقته، غير أنها لم تشتر هذه المرة أي كتاب تحتمي به من الشــمس، لوح بيده وهي تغادر، قبل أن يعود أدراجه ليدخل المكتبة بعد أن انطلقت ســيارتها، خطى نحو ذلك الرف الذي توجهت نحوه قبل أن تغادر، وراح يبحث عن الكتاب الذي وضـعته به حتى وجده، ثم عاد حاملا إياه إلى مكان جلوسه ليضعه جانبا، استخرج بعدها ورقة بيضاء ووضعها أمامه وراح يكتب بها :

إلى ماندين، ها أنت ذي تتخذين الخيار الأمثل، أظن أنك قد وصلت الجزائر الآن، دعينا نكمل رحلتنا من هنا، من أرض سيفار."...

مقدمة في الأخير.

كتبت مقدمة خامسة رغم أني كنت قد وعدتكم ألا أفعل لكي تتعلموا درســـا في الحياة، ما عاد هنالك من يفي بوعده هذه الأيام.

رواية

سيفار

الأرض الأخرى

قد تستوقفك عبارة لم يسبق لك أن كتبت مثلها قبلا، تنظر إليها، تتأملها فترة من الزمن، ثم يمضي ذلك اليوم، فيومان، تظن حينها أنك قد نسيتها، لتجد نفسك فجأة عائدا لتقرأها مرة أخرى، تتأملها من جديد كأنك لم ترها من قبل، لتثير فيك الرعب هذه المرة، لأنك لم تكن على علم بوجودها داخلك كل هذه الفترة، ماذا لو استوقفتك جمل ؟!، تتكدس وترتب نفسها بنظامها الخاص، تشكل في بادئ الأمر فقرة، ثم فقرات متتالية، صفحات، وفي الأخير كتاب، هذا الكتاب.

9 789931 817048

آفريكان للنشر والتوزيع
THE AFRICAN PUBLISHING

VISUALLAB™

QUANTUM